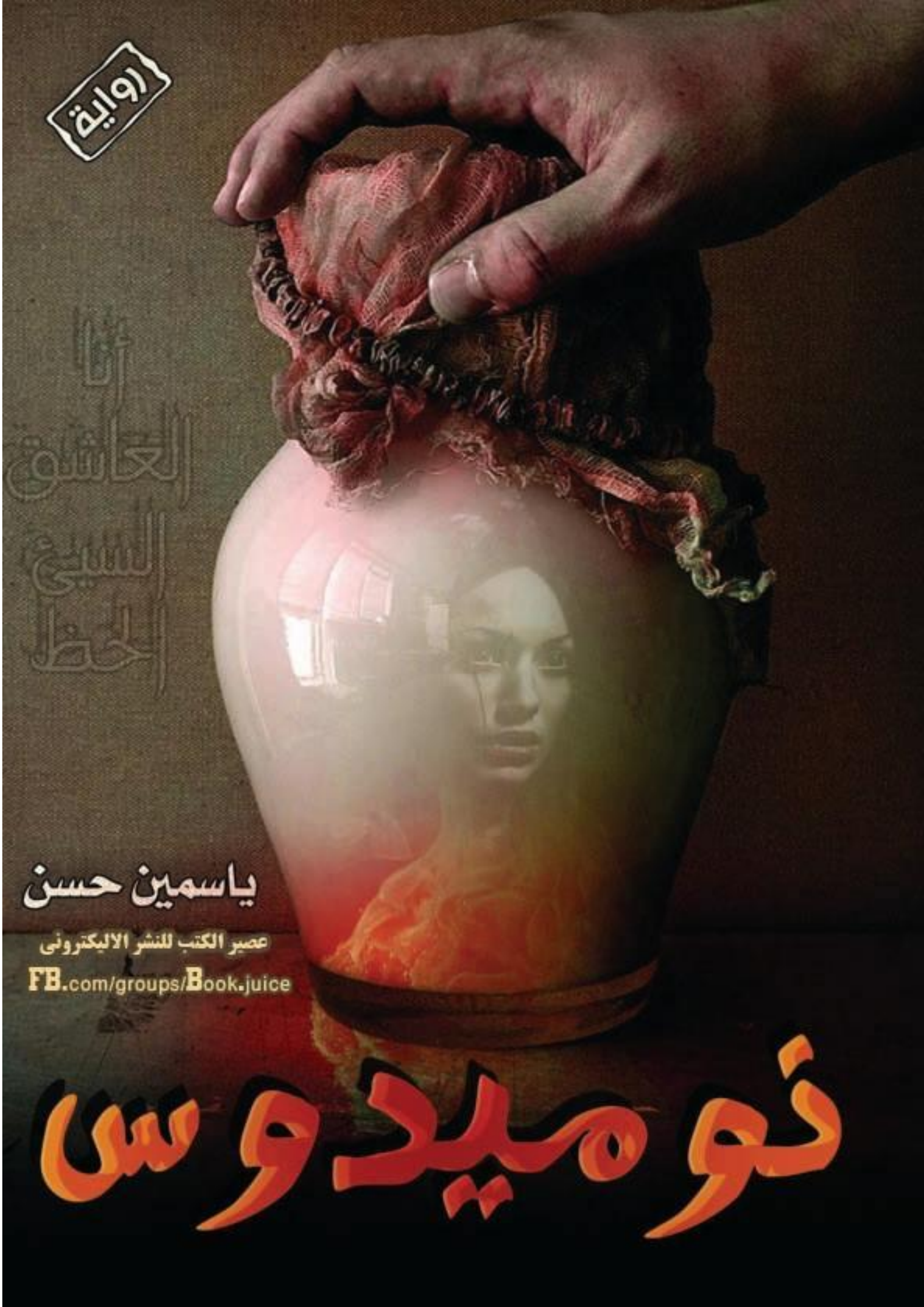

رواية
أنا العاشق السيئ الحظ
ياسمين حسن
عصير الكتب للنشر الاليكتروني
FB.com/groups/Book.juice
نوميدوس

نوميدوس

بقلم / ياسمين حسن

الإهداء ....

إلى هذا المخلوق الذي لم يفارقني منذ أن جئت
إلى هذه الحياة

إلى رفيق الحلم واليقظة ، إلى من شجعني وألهمني
بفكرة هذه الرواية القصيرة

إلى من أحب دائما قربه مني وبقاءه معي ...

قريني العزيز.. هذه روايتي الأولى

أهديها ...

إليك وحدك فقط !

ياسمين حسن

قد تكون مقدمة

أن ترى عالما معينا من تلك العوالم البعيدة التي تسكن معنا على هذه الأرض هو أمر مثير للدهشة البشرية ، لكنكم -أيها البشر– لا تعلمون أن أمركم لا يعنينا مطلقا ، أنتم مجرد كائنات خلقت من التراب لتسكن الأرض ، فلتقرأ يا صديقي إن شئت بين صفحات هذا الكتاب عن واحدة من قصص استحواذ الجن على بني الإنس ، استمتع إن شئت

أو.. لا تكمل قراءة الكتاب .

...

حبريت...

في طبقة مظلمة من طبقات الأرض تحت قاع المحيط آل بنا الحال فاستوطنا الجبال والمحيطات وبيوتكم المهجورة، لكن هنا في القاع، أقمت مملكتي... مملكة الملك حبريت.

نحن نراكم من حيث لا تعلمون، وهو ما يثير جنونكم أيها البشر، نعلم عن حياتكم ما لا تعلمون، نسمع أحاديثكم عنا التي لا تنتج إلا عن خوفكم منا، نعلم كيف نجعلكم تسكنون الجحيم في حياة الأبد القادمة، وأنتم تستجيبون لنا، فقط لأنكم أغبياء، حمقى.. لكن لا يمكننا الصعود إلى هناك، حيث أقداركم وأرزاقكم، ومن يفعل ذلك يطرد من القبيلة، يطرد من مملكتي... لكن عندما يتعلق الأمر بأحد حكماء القبيلة وأحد أفرادها رفيعي الشأن فإن ذلك هو ما يثير جنوني.

إن ما يطمح إليه لن يفيده في شيء، تكفيه كتب الحكمة السليمانية التي ورثها من عائلته من بني الجن، صعوده إلى السماء قد ينزل عليه عقابا إلهيا لن يحتمله... حاولت أن أكون له من الناصحين لكنه استمر في العصيان، عادة العصيان موروثة لا تعيب أحدنا لأنها خلق من أخلاق أبينا الأكبر «إبليس»، لكن حسب ما آلت إليه التجربة فالعصيان خلق غير محمود عند الرب جل وعلا، من ذا الذي يعصي سيده ويحظى بالنجاة من العقوبة والغضب!!

******

الأب...

عملت في إحدى الشركات في محافظتي القريبة من النوبة وأهلها البسطاء، ومن قرية ريفية في إحدى محافظات الجمهورية أتيت بزوجتي زينب في السابعة عشرة من عمرها، بينما كنت في الثلاثين، مرت عشر سنوات على زواجنا ولم يرزقنا الله بالذرية.

الله جل شأنه يقول «المال والبنون زينة الحياة الدنيا»، أدركت المال وجمعت منه ما يزين حياتي وحياة عائلتي، اشتريت منزلا جديدا وأصبحت حياتي مقسمة بين منزلي ومنزل والدي، رحل أبي ليتركني مع أمي العجوز التي رفضت أن تترك منزلها القديم وظلت تنتظر حفيدها أو حفيدتها.

زينب تريد فتاة لأنها عاشت حياتها في منزل أهلها وحيدة، وتقول إن الفتاة عندما تكبر تصبح ابنة وأختا وصديقة، بل وأما أحيانا، وأنا أيضا أريد فتاة؛ فرزق الإناث أكثر من رزق الذكور بركة. أذكر أن أمي أخبرتني أنها أيضا رغبت في أن تنجب فتاة لكنها رزقت بي.

في قريتنا يمكنك أن تأكل في أي منزل وأن تدخل أي دار، كل الأطفال ينادونك بـ«أبي» أو «عمي» فلان، فلا تشعر بالغربة أو فقد القرابة بينك وبينهم، وخوفك أيضا يسيطر عليك تجاه كل نساء القرية، أصبحت زينب واحدة من أهل القرية لكونها زوجتي.

ذات يوم عدت من عملي مساء لأجد صالة المنزل ممتلئة بنساء القرية العجائز، نظرن إلي وأنا أبتسم متسائلا: «أين زينب؟»، راودتني الأفكار الشريرة جميعا، ترى هل مرضت.. أو سقطت من الطابق العلوي للمنزل؟.. هل احترق شيء وأصيبت؟... هدأت نيران قلقي بعد دقائق عندما خرجت أمي وخلفها سيدة ترتدي ملابس سوداء – كالباقيات – من غرفتي ثم نظرتا إلي وابتسمتا، ثم رحلن جميعهن بنظرة من عين أمي وأنا أقف مذهولا أنتظر تفسيرا لتلك الحركات التي تشير إلى مؤامرة تدبر.

لست أنا ذلك الشخص الذي يؤمن بالخرافات والأعمال ويذهب إلى الدجالين، لكن أمي ونساء القرية اتفقن على أن نقوم بذلك من قبيل «اسعى يا عبد وانا اسعى معاك». قالت تطمئنني إن الشيخ عبد الستار رجل دين ومعالج بالأعشاب فقط، لا علاقة له بالأعمال والشعوذة وأمور الكفر تلك. أسمع أحيانا عن المعالجة بالأعشاب والطب البديل

ولا أظن أنه أمر سيئ، كما أن أمي رغم كبر سنها امرأة مؤمنة بالله سبحانه وتعالى وتثق بأن الرزق بيد الله وحده.

دخلت من الباب الحديدي لمنزل الشيخ عبد الستار وأنا أمسك بيد زينب، كانت ترتعد، نظر إلينا الشيخ وهو يقف عند باب الغرفة التي استقبلنا فيها وفي يده مسبحة تشبه مسبحتي قليلا. كنت أتوقع أن أرى رجلا في جلباب متهالك ومجموعة من السبح حول عنقه وبخور وظلام، لكن الأمر لم يكن كذلك، الشيخ عبد الستار رجل وسيم أصغر مني سنا يرتدي بنطالا قماشيا وقميصا عاديا كما أرتدي أثناء ذهابي إلى عملي، فقط تميز بلحية خفيفة حول وجهه الهادئ.

استمع إلي والابتسامة لم تفارق وجهه، أخبرته عن السنوات العشر الماضية من زواجنا وأخبرته عن التحاليل والفحوصات التي قمنا بها أنا وزينب دون علم أمي، فالقرية لا تؤمن بالطبيب بقدر إيمانها بالشيخ البركة المعالج، فقال بطمأنينة: «لا بأس، فالأرزاق بيد الرحمن»، ثم قرأ آيات من القرآن وهو مغمض العينين وزينب صامتة هادئة...

خرجنا من منزله ومعنا كيس فيه بعض الأعشاب وورقة بها أسماء بعض سور القرآن التي طلب من زينب أن تستمر في قراءتها. القلق الذي كان يملأ صدري أثناء ذهابنا تلاشى تماما عند خروجنا فقط ببعض الآيات والأعشاب المحفزة للجهاز التناسلي. صدقت أمي.

عدة شهور، وعدت إلى منزلي ذات يوم لأجد نفس المشهد يتكرر، نساء القرية مجتمعات –وقد علمت من المرة السابقة أن أمي هي التي تجمعهن– لكن الاختلاف هذه المرة أن زينب تجلس وسطهن والابتسامة ملء وجهها البريء والنساء يربتن على يديها ويباركنها. قالت أمي: «محمد، ستصبح أبا يا بني، والبركة في الشيخ عبد الستار»، ثم بدأت مبارزة من الزغاريد بينها وبين صديقاتها.

السعادة المصحوبة بالدهشة ومزيج القلق والنشوة انتشرا سريعا في روحي عندما نظرت في عيني زينب اللتين تفيضان بدموع الفرحة، علمت حينها كيف تكون المرأة التي لا تنجب، تكون كما كانت زينب في السنوات العشر الماضية، جثة حية تتحرك بين الرجاء واليأس، تكون شجرة ظليلة ترتعد كل فجر خشية أن يقطعها صاحبها. اليوم فقط أثمرت زوجتي ودب فيها ربيع الحياة من جديد.

ذهبت إلى الشيخ عبد الستار لأشكره، فابتسم لي واستقبل الخبر بسعادة تشبه هيئته المتواضعة. بعد دقائق فقط تبدل حاله وشخصت عيناه، لا أعلم ما سر هذه القشعريرة التي انتابتني وأنا أنظر إلى عينيه وخيل إلي أنهما شديدتا السواد في تلك الليلة أكثر مما كانتا المرة الماضية.

في اعتقادي كانت زينب حاملا لتسع سنوات وليس تسعة شهور، ذلك من طول انتظاري، إلى أن جاءت في ليلة من ليالي الشتاء الممطر في

قريتنا طفلتي الجميلة، وأنا أقف مع الشيخ عبد الستار خارِج الغرفة. نظر إلي نفس النظرة العميقة تلك وبارك لي، كنت متلهفا لرؤية المولودة التي نامت في مهد اشترته أمها قبل عشر سنوات، كانت الطفلة رائعة، ذات شعر أسود كثيف وعيون مغمضة وبشرة متوردة، كانت ابنتي حسناء.

******

نوميدوس...

لا شيء في هذه الحياة أجمل من أن تطلع على عالم الغيب، لكن أن تطلع على علم غيبي مزعج، هو أسوأ ما في هذا الأمر الجميل، ولعل ذلك هو الأمر الذي من أجله حجب الله عنا رؤية أقدارنا ومستقبلنا، ولعل ذلك أيضا هو الرحمة التي يسبغها الله علينا. الحكمة ليست ميزة أو صفة جيدة كما يعتقد بنو البشر، فالحكمة على الرغم من أنها تقي من السوء لكنها أيضا تقي من متعة الجنون!

ذلك هو أنا.. «نوميدوس» الحكيم، عشت للحكمة منذ أن جئت إلى هذه الأرض، والوراثة المهنية لا تخص البشر فقط، فلقد لحق بي نفس البلاء، فنشأت وتربيت وأنا حكيم وابن حكيم، تعلمت من أبويّ ما ورثاه من ذلك الزمن البعيد حيث كانا يخدمان النبي سليمان عليه السلام. حدثني أبي عن قصة النملة التي سمعها سليمان وهي تحذر قومها منه ومن جنوده، كان أبي ضمن هؤلاء الجنود، وكان من أشد الجن حبا وإخلاصا للنبي سليمان. عندما مات النبي وقضت الحكمة الإلهية بأن يتأخر خبر موته عن أبي وبقية الجنود من الجن شعر أبي أن موت سليمان ليس سوى رسالة من الله لنا، بأن القدر والغيب بيده جل شأنه فقط، وأن الجن قد يتمتعون بالصفات الخارقة مثل التخفي والصعود إلى

السماء والهيئة الجسدية المتعددة، إلا أن علم الغيب لا يظهر إلا لمن ارتضى جل شأنه وتقدست عظمته. ظل أبي يعلمني هذه الحكمة ويحرص على توثيقها في روحي لكن... الحكمة أمر والفضول واللهفة أمر آخر، ولعل الله خلقني بذلك الفضول والشوق إلى علم المجهول لأمر قضى أن تتجلى به حكمته.

الحكمة التي تمنعك من القفز من السماء إلى الأرض فقط لأنك تخشى الاحتراق أو الاصطدام بإحدى الأرواح الصاعدة إلى السماء، والحكمة التي تمنعك أيضا من رؤية قدرك المحتوم فقط لأنك ممنوع من ذلك.

لن أسمح لليأس أن يتملك قلبي، سأستمر في الصعود نحو السماء وفي كل مرة سأتجاوز خطرا ما. أثق أن ثمة أمرا ما في قدري يستحق أن أطلع عليه وأن أعلم بوقوعه قبل المرور به.

حبريت العظيم، ملك قبيلتي، يعشق قتل البشر وأسرهم في مملكته لخدمته، يكره النبي آدم ويكره البشر بصفة عامة، ويكرهني لأني أحبهم. ثمة علاقة ما تربطني بهم، قد تكون البداية عندما تتلمذ أبواي على يد النبي سليمان وطوع الله أمرهم له فكانت حياتهم هي السمع والطاعة، وربما العلاقة الرابطة بيني وبينهم نشأت منذ ذلك اليوم السعيد الذي غرر فيه الأب الأكبر لمعشر الجن بالنبي آدم وجعله يقترف الإثم الذي قضى الله فيه بالخروج من الجنة والنزول إلى الأرض. لم يكن لي على هذه الأرض وجود، لكن كانت روحي تجول في أثير الهواء المحيط بالنبي آدم. لم

يرد في خاطري ولو لثانية أن أسقط في ما يسمى الحب، لكن المفاجأة أنني سقطت في حبها. علمت أثناء رحلة من رحلاتي إلى السماء أن فتاة ستحيا عمرها في عزلة ما، حتى تقضي نحبها في يوم ما. فشلت محاولاتي في استراق المجهول، لكني شعرت عندما سمعت خبر هذه المولودة أنني حظيت بغنيمة هائلة، فانطلقت إلى موطنها في تلك البقعة من بقاع الأرض، وظللت أنتظر مجيئها. أعلم أن الله قدر لها أن تصل إلى الأرض في وقت معلوم عجزت عن إدراكه، لكني كنت متلهفا لرؤيتها، متلهفا لصوتها وطفولتها البريئة، انشغلت بها عن تلك المغامرات التي كنت أستمتع بخوضها، نسيت المجهول الذي لهثت وراء اكتشافه لسنوات طويلة، وقررت البقاء مع هذه الرضيعة التي ستصل عما قريب إلى الأرض. فُتنت بها، تلك الفتنة التي تفقدك صوابك وتنسيك ما كنت تفعل، وتخطفك من نفسك، أظن أن فتنتها عقاب.!

«حسناء» الاسم والصفات، جميلتي، سميتها جميلة وستبقى جميلة إلى الحياة الأبدية. أمر ما يجذبني إليها، ذهبت إلى والدها في منزل الشيخ عبد الستار، كنت أتأمل فرحته من خلال عيني الرجل، وكان ينظر إلى عيني بخوف.

قررت أن أملأ عزلة الطفلة. صعدت إلى وجه الأرض ولزمت غرفة زينب ليطمئن قلبي على الصغيرة النائمة في رحمها، وقفت بجانبها في ليلة الوضع وانتظرت نزول الجميلة حسناء، كنت أول من يلمسها قبل المرأة العجوز المخيفة تلك التي جلست مشمرة عن ساعديها لاستقبال

الطفلة، كانت يداي بدلا من يديها. طبعت أولى قبلاتي على جبينها وهي مغمضة العينين نائمة غير مدركة أنها وصلت إلى الأرض أخيرا، ثم خرجت من الغرفة وتركت المرأة تغسلها وتضعها في قطع من القماش الأبيض، فأصبحت كالملائكة. كاد الرجل يرقص من شدة الفرح، كما بكت زينب بشوق لطفلتها قبل أن تذهب في غيبوبة الراحة من عناء الولادة. أدرك مدى سعادتهما، لكنها لن تكون بحجم سعادتي.

اليوم أصبح كوكب الأرض يسمى كوكب الحسن، وأصبح منزل والديها هو مسكني، ومهدها الصغير ملاذي، أشعر أنني أصبحت أبا فجأة، لي طفلة ترقد في مهد صغير، كم مرة تجولت حوله وأنا في انتظارها. عجبا لهذه الألفة الغريبة التي تملأ القلب وأنت في رفقة طفل! طفل لا يعرفك، لا يستطيع أن يتبيّنك هل أنت ملك أم بشر أم جن!!

طفلة على وجه التحديد، أنثى رقيقة بديعة كما تكون الزهرة الأولى في فصل الربيع، بعد الشتاء الطويل والجفاف القارس، تنظر إليك الطبيعة بعين مشفقة حنونة وتهبك زهرة صغيرة، فاتنة، تتفتح في خجل لتملأ الحياة اخضرارا وربيعا وازدهارا. تلامذتي في القوقعة يقولون إنني أصبحت شاعرا، عن أي شعر يتحدثون؟! فالشعر يكتب في سائر البشر ويكتب في عامة الجن، لكن هذه الفريدة من نوعها تحتاج إلى أبجدية مستقلة بذاتها، أبجدية تخلق لها خصيصا، لأكتب بها عن تلك الشعيرات القليلة فوق جبينها الوضاء ونعومة بشرتها التي تفيض إشراقا، حسناء تملك هيئة ملائكية في قمة البهاء.

تحولت مع الوقت من الحكيم نوميدوس إلى الأب نوميدوس المتيَّم، كنت أهرب من مقابلة حبريت الذي ينتظرني ليلومني ويردعني عن تلك الأفعال الصبيانية حسب اعتقاده، لكنني لا أكترث لأمره الآن، أغوص في أعماق النشوة والمغامرة ولا أريد فقدان هذه اللذة العجيبة، لذا كنت أحرص على أن أكون ذا هيئة مطمئنة في حال رؤيتي، لعلها تفتح عينيها ذات يوم وتراني، لا أحب أن تبكي، فعندما تسيل دموعها أشعر أن بحار الأرض اجتاحت يابسها وأن الكوكب كله أوشك على التفتت.

إن التاريخ الذي سيكتب عني ذات يوم وسيدرس لتلامذة أحفادي سيقول إن واحدة من بين ملايين البشر سرقتني، سلبتني فؤادي ولم أستطع مقاومتها وهي لا تحمل من العمر سوى بضع ساعات، وحتى نهاية الأجل لن أتركها، سيقول التاريخ إن واحدا من أعظم الحكماء في مملكة العظيم حبريت ظل يطارد البشر ويصعد إلى السماء كي يقتحم قدسية المجهول، لكن الله شغله بفتنة ونعمة متجسدة في أنثى من بنات حواء، سيقول التاريخ إن آدم انتصر مرة على إبليس، لكن حفيدة آدم تكاد تقتل حفيد إبليس من فرط سعادته بالحصول عليها.

توالت الأيام وغدت الرضيعة طفلة في أعوامها الأولى، تخطو خطوات صغيرة فوق الأرض وتهبط قدماها على سطح قلبي المنبسط أمامها. ما ألذ أن تكون فراشة تطاردك يدان ناعمتان في الصباح، لا تضاهيها لذة أخرى، وفي المساء كن بين ذراعيها في قطتها الصغيرة، واجعل بشرتها الحليبية تلامس جسد القطة التي تتنكر في هيئتها، واشعر بالقشعريرة

الناتجة من سعادتك. هذه هي مغامرتي الأجمل على الإطلاق، كيف تكون الحياة في قمة البهجة وأنا أقف بجوار طاولتها وهي على كرسي اشتراه محمد خصيصا لتجلس الأميرة الجميلة وتأكل طعامها وتسقط بعضا منه، أقف وأتشمم الفتات ذاك لعلي أنهل من رحيقها، أثق بأن حبريت لو رأى ملامحها الصغيرة الهادئة سيتحول إلى كائن وديع بدلا من ذلك الحقد الذي يقطر منه أينما وجد.

ينتابني الحزن كلما تأملت وجه حسناء الجميلة وتذكرت أنها ستفنى ذات يوم ويواريها تراب الأرض، ترى كيف سيكون مصير أمها وأبيها بعد ذلك الانتظار المميت؟ تمنيت لو أن لي عمرا يوهب، فأهبه لها كما وهب النبي آدم من عمره لابنه داود.

ذات مساء، أذكر أنها كانت تحتفل في منزل الجدة بين أبويها بالعام الخامس لها في حياتي وعلى هذه الأرض، انتهى الحفل وعادت إلى المنزل وفي ظلمة الليل حملت القط الذي أتلبس فيه ثم ضمتني إليها، أصبحت ذات ذراعين صغيرين لكنهما تبثان في دفئا ما، ثم نظرت إلى عيني مباشرة وقالت: «آه يا بسبس كم أحبّك، هل أخبرك سرا؟... كم أخشى أن أفارق عائلتي الصغيرة، أبي وأمي وجدتي التي تخاف منك».

نظرت إلى عينيها وهي تفضي إلي بأسرارها وتعدني أنها ستحتفظ بي على الرغم من انزعاج جدتها مني، قالت لها زينب إن هذا القط ولد معها في

نفس اليوم ولذلك تبقيه معها في غرفتها، وذلك أفضل ما قامت به زينب.

****

الجدة...

رزقني الله بولدي محمد في عامي الأول من زواجي، وحلمت كثيرا بأن يصبح لي أبناء كثيرون لكن لم يحدث، ومع رحيل زوجي لم يبقَ لي سوى محمد، فأصبح هو كل أملي في هذه الحياة، لكنني فضلت البقاء بمنزل والده إلى أن تفيض الروح إلى خالقها، وليبقَ ولدي وزوجته في منزلهما حتى يعتادا الحياة بعد مماتي.

جاءت حسناء الصغيرة بعد سنوات من الانتظار، فتحولت حياتي إلى حياتين، إحداهما على وشك الانتهاء والأخرى تبدأ. كانت الطفلة تكبر ويكبر معها قلقي عليها، وقلق والدها ووالدتها. كم مرة لحقنا بالطفلة وهي على شفا حفرة وتكاد تسقط... كثيرا ما كنت أرى أحلاما سيئة تنبئ بخطر ما سيلحق بالطفلة. ذات يوم استيقظ محمد ليجد الطفلة غارقة في حوض الاستحمام والقط اللعين بجوارها يزمجر ويموء بكل ما أوتي من قوة، كادت تغرق لولا هذه الضجة. حذرت أمها كثيرا من هذا القط لكنها لم تكترث، احتفظت به منذ أهدته إليها أمها فور ولادتها، ثم تعلقت الطفلة به. ثمة أمر ما يكمن في هذا القط، عيناه كأنها تراقبنا بحذر وخبث، كلما اقتربت من الطفلة في الليل أجدها تضمه بقوة وكأنه يبادلها العناق.

كنت أجلس في غرفتي كعادتي بعد كل فجر ونظري إلى السماء، الشمس تسقط بسرعة كبيرة تجاه المنزل حتى اقتربت من نافذة غرفتي ورأيت لها عيونا كعيون ذلك القط تنظر لي، نظرة جامدة مخيفة تكاد تخترقني، بكيت من خوفي، بكيت حتى انقطع الدمع من عيني وشعرت بأن الشمس مدت إلي ذراعيها وظلت تربت على كتفي، تربت بقوة، بشدة، إلى أن استيقظت لأجد حسناء هي التي تربت على كتفي وتهمس بقلق: «جدتي، جدتي، استيقظي»، ضممتها إلى صدري وهي تهمهم وتبكي...

كانت حسناء تبحث عن القط في تلك الليلة وباتت معي عندما تأخر الوقت وتعجل والدها الذهاب إلى منزله، كانت تلك هي المرة الأولى التي تقبل فيها النوم خارج غرفتها في منزل محمد.

في صباح هذا اليوم المشؤوم، استيقظنا بعد شروق الشمس وذهبت أنا والطفلة إلى منزل محمد لنفاجأ بانفجار أسطوانة الغاز في تلك الليلة، ترددت على أذني حوقلات وتسبيحات كثيرة. اختفى القط قرابة أسبوع من هذه الواقعة التي زادت من شكّي في أمره، بينما حسناء الذاهلة التي لم تستطع استيعاب مرارة اليتم وهي في مطلع الثامنة من عمرها، كانت تخاف مني، تقول باكية إنني قتلت القط وقتلت والديها!

ذات يوم عادت حسناء من مدرستها تحمل القط بين ذراعيها وهي في غاية السعادة، نهرتها وطلبت منها أن تطرده خارج المنزل؛ حتما قد امتلأ

بالأمراض والميكروبات، لكنها أخذته إلى الحمام لتحممه ثم ذهبت به إلى غرفتها وأغلقت على نفسها الباب بالمفتاح! سمعتها تقول بصوت مرتعد: «أنا خائفة منها، أخشى أن تشعل النيران في غرفتي وتذهب للنوم كما فعلت مع أبويّ، أريد الرحيل من هنا، أتمنى أن أذهب بعيدا عن هذه القرية»، ثم استرسلت في البكاء بصوت خفيض يعصر قلبي. يا للكارثة...! كيف يمكن معالجة هذا الأمر؟!... حسناء الفتاة الضاحكة الفاتنة أصبحت كتلة من الحسن الكئيب تتحرك فوق الأرض، تتجنبني، تغلق غرفتها قبل الرحيل وتعود إليها وتغلق الباب مجددا...

كانت تكبر ويكبر معها –منذ ذلك الحادث– حزني وألمي، وكأن الحياة الجديدة التي ابتدأت لتوها قد أوشكت على الانتهاء كالأخرى.

انتهت مرحلة الإعدادية لطفلتي الصغيرة لتصبح فتاة ذات جسد مفعم بالحيوية وقلب يفيض لي بالكراهية، المساحة الصامتة بيني وبينها تزداد، تأكل بهدوء ثم تقف لتغسل يديها وتذهب لغرفتها. حاولت كثيرا أن أكسر حاجز الصمت بيننا لكنها كانت توصد كل الأبواب في وجهي، تعرفت إلى فتيات كثيرات وأصبحت صاحبة أسرار لا أحد يعرفها سوى وفاء، صديقتها، لكنها رغم السنوات التي تمضي لم تتخلَّ عن تعلقها بذلك القط الذي أكرهه كثيرا، عندما أنظر إليه ليلا أتذكر الأرواح التي تسكن القطط خاصة، كثيرا ما نسمع بتلك الأساطير.

******

نوميدوس...

الوقت في حال الانتظار طويل للغاية، أطول من رحلة إلى السماء السابعة، لكنه أقصر من طرفة عين سليمان الحكيم إذا كنت لا تريده أن يمضي. حسناء جميلتي تكبر وتزداد أنوثة يوما بعد يوم، وقلبي يرتجف في كل يوم تكبر فيه أكثر... الوقت يمضي والأجل سينتهي ذات يوم، وتلك العجوز الشمطاء تكره سكني بين ذراعيها في الليل بهدوء، تكره القط بسبس الذي أنقذ حسناء من ذلك الحريق، كانت ستموت في عدة مواقف ولا أحد يهتم، أشعر أن هناك لمسة ما في هذه اللوحات الدموية حول حسناء، محاولة غرق، وسقوط في حفرة عميقة، وأخيرا حريق يشب في منزلها!

تأملت كثيرا وأنا أراقب صمتها وهي طفلة في أولى ليالي يتمها، والحزن يغطي ملامح براءتها كما تفعل السحب الدخانية حول القمر، وددت لو استطعت أن أرد إليها والديها اللذين لن يسعداها كما أسعدها ولن يخافا عليها مثل خوفي، كم مرة تركت حسناء وحدها وأنا غائب وهم نائمون، كم مرة يطاردها القلق والمرض وهم صامتون، كنت أكرههم لأنهم لا يعلمون كم هي رقيقة وكم تبدو كئيبة أثناء بكائها.

بقيت هيئة القط غائبة عن المنزل حيث ذهبت لأبحث عن تلك اليد الخفية التي تسعى لموت الزهرة التي نبتت في عالم الأموات الذي أسكنه، ولم يخِب ظني، إنه العظيم حبريت، عاشق الشر والوريث الشرعي لحقد إبليس، انتظرني.. لكن في نهاية العام الثامن لي مع حسناء انفجر غضبه في منزل الطفلة البريئة، يبتغي من وراء ذلك أن ترحل وأعود لعهدي السابق، لكن قلبي لم يشأ أن يترك حسناء في تلك الليلة تذهب إلى بيتها، وككل مرة تنجو فيها من موت محقق كنت أنتشي وأحلق في السماوات السبع وأهبط إلى الأراضين من فرط السعادة والسرور، لكن الآن، ينبغي علي أن أحذر أكثر من حذري على طفلتي الصغيرة من يد حبريت وجنوده الذين يتناثرون حول حسناء في كل مكان. طلبت منه الابتعاد عن هذه البشرية لكنه رفض واستهزأ بتهديداتي، لست أنا القائد الذي يتلذذ بالقتل والتعذيب، لكني أعلم جيدا كيف أبث الحب والمودة في قلوب تلامذتي، فتبقى مملكة الشر خاوية على عروشها، يخفق فيها قلب حبريت العظيم وتحرقه ألسنة اللهب المتصاعدة من حقده وكراهيته للبشر.

تركت له التحذير والتمست عفوه، فرغم كوني حكيما من أفضل حكماء الجن لكنه ملك يستطيع أن يجعلني أقل من أصغر نفر من الجن في قاع المحيط المظلم.

عدت بعد هذه الزيارة السريعة إلى طفلتي التي كانت تبحث عني، بدأت تشعر بالانتماء إلي، تلك سعادة أكاد أجن من فرطها. استقبلتني بلهفة

عظيمة واسترسلت بعد صمتها المطبق في الحديث والثرثرة، كنت أستمع إليها وأمسح برأسي على وجنتيها، اشتقت إلى هذا الملمس الحريري، ورغم الغضب الذي يلاحقنا لكنني لم أجد بدا من الدخول إلى عقلها الباطن، كنت أغوص في أحلامها، ثم بدأت أخطفها أثناء نومها لأجوب بها شتى بقاع الأرض، أدخلتها بيت المقدس وأطلعتها على مدينة سليمان القابعة هناك، أريتها حدائق بابل المعلقة، وذهبت بها إلى الهند لتشاهد الأطفال ذوي البشرة السمراء كأطفال مدينتها والشعر الكثيف الأسود، ثم رحلنا إلى تركيا، وروما، والصين، تعلقت بعيونهم الضيقة وكانت تضحك منها كثيرا، راقت لها المأكولات الهندية الكثيرة التوابل، أما في روما العاصمة الإيطالية فكانت تراقص التحف الفنية الرائعة، مضت سنوات عمرها القصيرة في رحلات مستمرة من خلال التنقل أثناء النوم حول العالم، فعلت ذلك لأحقق لها هذه الأمنية الصغيرة، الرحيل عن هذا المنزل، لكن بطريقتي، ولكي لا تنزعج جدتها كانت فكرة إغلاق باب الغرفة أمرا جيدا حتى لا ترى الفراش فارغا في الليل.

عندما وصلت حسناء إلى مرحلة المراهقة كانت العلاقة بينها وبين جدتها شبه منقطعة تماما، وهو ما تمنيته، فقد أصبحت لي وحدي ترقد بين ذراعي وتشرد طوال اليوم في عالم من الأحلام. حذرتها في بداية الأمر من أن تحدّث أحدا عما ترى في الحلم –حسب اعتقادها– لكنها كانت تحدث قطها بسبس الذي هو أنا، قبلت أن أحيا فقط في عقلها الباطن على أن أتأملها في صمت ووجل كل يوم...

وفاء.. تلك الصديقة التي دخلت إلى حياتها دون أي مقاومة مني أو من حسناء، هي فتاة ثرثارة جدا، تملأ نهار طفلتي، وتشغلها عن جدتها التي لا تكف عن الحديث الممل عن تلك الأيام الخالية وعن والدها ووالدتها. كنت أحب زيارات وفاء رغم الأفكار المراهقة التي كانت تبثها في عقل طفلتي.

ذات يوم اصطحبت وفاء صديقتها حسناء إلى النهر الجاري ووقفتا بملابس المدرسة ذات اللون الكحلي، كل منهما تكشف عن جزء يسير من ساقها، والمياه العذبة تداعبهما. كانت جميلتي تضحك بفرح من عمق بعيد في روحها، تلك الضحكة التي لم تضحكها في الواقع منذ وقت بعيد، في تلك الليلة قررت أن أعاقبها على العبث في مياه النهر فقلت لها: «لن نسافر الليلة إلى أي مكان يا عنيدة يا فاتنة»، فقط بقينا في قارب في وسط النيل نتأمل النجوم والقمر، لكنها بالطبع حزينة، كانت تنظر إلي بعينين سوادهما أشد فتنة من ظلمة السماء الموشاة بالنجوم، تخبرني أنها مستاءة من غيرتي عليها، ظلت تطلب مني مسامحتها، روحها في الحلم تدهشني، ويدهشني أكثر ذكاؤها ونقاء فطرتها، تلك الرقيقة التي تسير في القرية بخصلات شعرها المتناثرة وفستانها الأخضر لتترك في كل قلب حسرة، هي معي، تتوسل إلي أن أسامحها، تستيقظ من نومها في نشوة وسعادة لتقف أمام المرآة وتطلق العنان لذراعيها حيث تمدهما وكأنها تريد أن تبقى في السماء طائرة، ثم تمسك أعواد الطباشير الملونة وتصور كل مكان نمضي إليه برسوم

كاريكاتيرية مضحكة. أصبحت فتاة ناضجة وما زالت لوحاتها خربشات قطة صغيرة غارقة في حب قط معمر اسمه بسبس. كم أخشى ذلك اليوم الذي ستقع فيه جميلتي في بئر العشق، ترى من سيسبق الآخر، نهاية الأجل أم بداية العشق؟!

حبريت العظيم ما زال غاضبا، ينتظر عودتي إلى القاع. حسنا أيها العظيم، سآتي إليك، وسأترك جميلتي في عناية الخالق الذي أبدع في حسنها...

****

حبريث...

كم عاما مضى يا نوميدوس دون أن تتوب عن خطاياك، واليوم تأتي وأنت مدرك تماما لما سيلحق بك من أذى. متى ستشبع من التسكع في طرقات القرية تلك بين النساء العجائز والصبيان، وصلت بك هذه البشرية إلى أن تسيطر على عقلها وتنتقل بها إلى أماكن متفرقة من العالم، هل تعجبك هيئة الفارس الوسيم الذي يصحبها في هذا الحلم؟ هل يروق لك اسم بسبس أيها الحكيم؟! تتنازل عن مكانتك العظيمة بين عشيرتك وتلامذتك وقبيلتك من أجل هيئة قط أشعث يتمسح في صدر فتاة ساذجة، تقف لتلتقط فتات طعامها من تحت قدميها، وتبقى في فراشها وهي نائمة! أي مرض أودى بك إلى هذا الهلاك؟! من أنت أيها الحكيم لتتنزل إلى عالم البشر وتغرم بهم إلى هذه الدرجة؟! لا أظن أن هناك عقابا يناسبك أكثر من ذلك.

أقول لك حقيقة ربما غفلت عنها، طفلتك التي تركت بنات الجن من أجلها ستعشق عما قريب، ستسقط في شبَاك أحدهم، ولن تستطيع السيطرة على قلبها، ستخسر كل شيء، أفنيت سنين من عمرك لإسعادها وستطعنك في قلبك. ما الذي يمنعك من التلبس بها؟ ائتِ بها إلى عالمنا، هنا في القاع ستكون آمنة بدلا من هذا العذاب..

– «تعلم يا سيدي، لو أنها تتحمل لمسة مني لجسدها الرقيق لما تأخرت، لكن بنات حواء خلقن من التراب والنار لا تسكن في التراب. أحدنا سيقتل الآخر، ولن أتحمل أن أكون قاتلا ذات يوم، خصوصا لو كان القتيل.. حسناء.. جميلتي».

نوميدوس يحدثني بتأثر بالغ وقد فاضت عيناه وهو ينطق باسمها، تلك اللعنة البشرية المسماة حسناء، أو ربما كان الأمر عقابا إلهيا، العشق.. ذلك الهلع الذي يكسرك إلى شظايا صغيرة تحت أقدام من تحب، أعرفه جيدا، وقد انتصرت عليه وتشبعت نفسي بالحقد والكراهية لجميع البشر.

ينبغي عليك يا بني أن تسعى قريبا للشفاء من هذه المخلوقة، قبل أن تداهمك الغيرة السوداء التي ستجعل حياتك موتا مستمرا.

صمت قليلا وقام من مجلسه ليرحل، كنت أنصحه فعلا لأن الغيرة جنون لن يتحمله. من أجل تلك الغيرة منعت أفراد القبيلة من التدخل في حياة نوميدوس أو حياة طفلته، ومن أجل ذلك أيضا أصدرت مرسوما ملكيا لرعاياه من الجن الذين يتلقون الحكمة منه بتغيير القائد الحكيم لجماعتهم...

أتمنى لو أنه قتلها ذات يوم من فرط غيرته وتنتهي هذه اللعبة السخيفة...

❋❋❋❋❋❋❋

الجدة...

قليلا ما كنت أجلس مع حفيدتي لفرط انطوائيتها، كانت تكتفي بالنظر إلي على طاولة الطعام ثم تلقي ببعض طعامها إلى القط وهي تداعب فرو رقبته، هذا القط الذي لطالما شعرت أنه حارس أمين على حسناء رغم حقدي عليه لأنها كانت تتحدث إليه أكثر من حديثها معي. ذات صباح كانت حفيدتي تقف أمام المرآة في غرفتها، وللمرة الأولى منذ سنوات تترك باب غرفتها هكذا مواربا. تأملت الغرفة بجدرانها القديمة، لم يتغير فيها سوى بعض الرسومات. من الواضح أنها كانت تضيع وقتها في الرسم على الجدران. سريرها يتوسط الغرفة تماما، لا يستند إلى أي من الجدران، فوقه ناموسية كبيرة معلقة بالسقف، ورائحة ما تفوح من الغرفة، مؤكد هي رائحة القط الذي ينام بجوارها كل مساء، وصوت مسجل آتٍ من مكان ما في الغرفة بأغنية قديمة كانت تحبها زينب. حسناء أمام المرآة تصفف شعرها وهي تهمهم بكلمات الأغنية.

خرجت من الغرفة لتنظر إلي بابتسامة – لأول مرة – ثم قبّلتني وضمتني إلى صدرها وأنا متجمدة بين ذراعيها، لا أعلم لماذا تتعامل معي بذلك اللطف الغريب عنها!... «صباحك سعيد يا جدتي»، قالتها وانطلقت نحو باب المنزل ثم أكملت: «سأذهب لتبين نتيجة ثانويتي ولن أعود،

فسأذهب مع وفاء في جولة وربما أبيت عندها». سكتُّ ولم أعقب، فتلك عادتها من وقت إلى آخر، تنام عند صديقتها الوحيدة. دخلت غرفتها لأجد السرير المنتصب في وسط الغرفة كالضريح، وصوت الغناء مستمر، لا أعلم من أين يأتي، والمرآة مكسورة، ووجدت «أجندة» زرقاء أعرفها جيدا، تلك هي آخر أجندة اشتراها محمد، رحمه الله. مددت يدي لأفتحها، فإذا بيد تمسك يدي...

****

حسناء...

زينب.. أمي.. كم اشتقت إلى هذه المرأة التي نامت للأبد في وقت مبكر جدا من حياتها. كانت تحلم لي بأن أصبح ذات يوم مرشدة سياحية تقف بين الأجانب من كل مكان في الأرض لتحدثهم عن عظمة هذا البلد وحضارته بين الأمم. أمي كانت سيدة طموحة رغم تواضع القرية التي أتت منها.

لم أشأ يوما أن أخذلها، فقد احتفظت بحلمها بين ثنايا روحي وسأكونه ذات يوم، حتى إنني بت كل ليلة أحلم بالترحال بين بلدان العالم. ثمة بعض الأمور المثيرة للقلق في هذه الأحلام لكن الفكرة ممتعة إلى حد عدم التصديق، وددت أن أحدّث وفاء عن هذه الأحلام لكن تذكرت ذلك الهاتف وخشيت أن أفقد لذتي الشخصية. وفاء ابنة مؤذن القرية الشيخ عبد الستار، تقول إنه تعلّم طب العطارة القديمة من والده، كما أن أمي كانت تحب علاقتي بها وتمدح ذلك الرجل كثيرا هي وأبي، لكن الغريب أن وفاء لا تصلي.

في المرحلة الثانوية كانت وفاء ترسب كثيرا، حتى إن أمها دائما تعجب من صداقتنا القوية رغم تباين مستوياتنا الدراسية، أمها لا تعلم أن هناك حلما يقبع بداخلي يقض مضجعي، في الوقت الذي تحلم فيه الفتيات

بالسندريلا وفستان الأميرة المزين بالزهور كنت أحلم بمدن العالم التي أصبحت جزءا من عالمي الخاص. منزل وفاء يشبه منزل أبي رحمه الله، لذا أحب وفاء وأحب رفقتها، ملامحها السمراء وثرثرتها تجذبانني، كما أنها تملك جهاز كمبيوتر نستطيع من خلاله الدخول إلى الإنترنت، وقريبا سأكمل ثمن الجهاز الذي سأشتريه وأنا في القاهرة.

في ذلك الصباح اتصلت بي لتوقظني من النوم الذي لا أحب أن أتركه، وأخبرتني أنني بالفعل حصلت على ذلك المجموع الذي لطالما تمنيت أن أحصل عليه، وبذلك فقد حانت الفرصة للانطلاق إلى هناك، حيث أتمنى من كل قلبي.

فتحت باب غرفتي لأترك جدتي تتعرف إلى عالمي الصغير، لتنظر إلى لوحاتي التي صورت فيها كل الأماكن التي أتمنى زيارتها في الواقع كما كنت أزورها في الحلم، حلمي الأخير كان في القاهرة الكبرى، قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، تلك المدينة التي قال عنها أحد القضاة قديما إنّ من لم يرَها.. لم يعرف عزّ الإسلام. رسمت كل ما أذكره من الحلم وقد قررت أن تبدأ رحلتي في البحث في عالم الحضارة من القاهرة، من هذه العاصمة صاحبة الألف مئذنة.

تركت مرسمي القابع على جدران الغرفة وخرجت، لأفتح بابا من العاطفة في صدر جدتي من جديد حتى تتقبل خططي المستقبلية. أعلم أنها لم تكن سببا في تلك الحادثة، لكن قلبي أيضا لم يستطع حبها، ففضلت

البقاء وحدي في عالمي الخاص الممتع، وكانت مشكورة تحترم هذه الخصوصية.

غادرت المنزل كي أذهب إلى وفاء لنرتب شؤون سفرنا، لكنني سرعان ما عدت إلى الغرفة لأجد الأجندة بين يدي جدتي. أخذتها وذهبت وهي في صمت مطبق، وبسبس الشقي يعبث بحذائي.

صديقتي وفاء، غرفتها ذات جدارين بلون أزرق يشبه السماء وجدار آخر مكسو بالصور الصغيرة والكبيرة والغريبة، صور كثيرة جدا، وفاء لديها معرض صور عبقري في غرفتها، كلها أماكن سبق وأن درجت تحت سمائها وإن كان حلما لكن شعوري الداخلي يقول ذلك. السرير منكمش جدا في ركن من أركان الغرفة، ودولاب بني مكتسح نصف الجدار الرابع قرابة باب الغرفة، جهاز الكمبيوتر الخاص بوفاء كبير له طاولته الخاصة التي تحتوي جميع أجزائه التي تصدر الصوت الرهيب ذاك. دخلت معها من مدخل المنزل إلى الغرفة وسط ترحيب إخوانها الصغار. كنت أشعر بحماس شديد وأنا أجذبها من يدها لترتدي ملابسها كي نذهب، لكنها جذبتني من يدي لنجلس على سريرها الصغير فتسرد لي مقابلتها الأخيرة...

«آه يا حسناء لو ترين كم هو وسيم وقوي وجريء! لم أكن أعلم أن الحب جميل هكذا يا صديقتي، هو من القاهرة ويعمل بالمدينة القريبة من هنا ولديه شقة جميلة.»...

وفاء تحدثني عن صديقها الذي تسهر معه كل ليلة عبر الإنترنت بينما أنا في غرفتي أتجول حول العالم في حلم من الأحلام بصحبة فارس وسيم.. تحدثني عن الحب الذي لم أجربه سوى مع بسبس الذي يشعرني دائما بأنه أكثر مخلوق يحبني، أريد أن أرى كل البلدان التي ذهبت إليها في أحلامي، أريد رؤية تلك القبة الخضراء في الأقصى، أريد التجول حول الأرض، وأرى تلك القرية الجليدية عند قطب من قطبي الكرة الأرضية، أريد مداعبة ذلك الحيوان الذي يحمل ولده فوق صدره كما تحمل نساء قريتي صغارهن، كما أتمنى رؤية ذلك الوسيم الذي يذهب معي دائما.

وفاء اليوم في قمة السعادة، هذه هي حالتها كلما سهرت مع صديقها، تقابلني في الصباح وتظل تسرد ذكرياتها معه طوال اليوم. علمت منها أنه من حي شعبي في القاهرة، حيث تقف صباحا لتناول الإفطار أمام عربة ما يرأسها رجل يبيع لك الفول الغارق في الزيت والكمون بصحبة بعض المشهيات الشعبية اللذيذة وخبز ساخن، حيث تستمع إلى صوت المؤذن وكأنه في منزلك، وكذلك جرس الكنيسة، حيث لا تعلم هل مريم مسلمة أم مسيحية، هل هي أخت جرجس أم أنها أخت محمد... تحدثني وفاء عن قصص كثيرة يرويها لها عشيقها، تسألني كثيرا عن أحلامي وقلبي الذي لم يفتح بعد، لكنني على عهد مع ذلك الطيف الذي يحملني كل ليلة إلى بقعة من بقاع الأرض تختلف عن سابقتها، فقط أواجه مشكلة مصيرية، الآن أريد رجلا يشبه أحلامي، يشبه ذلك الفارس، لكنني لن أجده بكل أسف.

مساء صديقتي مختلف تماما عن ذلك المساء الهادئ في غرفتي، حيث الضوء المنبعث من القمر الذي يحول سريري إلى عرش ملكة ترقد منكمشة الأطراف، لكن هنا لم ألتفت إلى القمر ولا السرير، ولا أدري أين ذهب بسبس، فقط كنت أحدق في شاشة الكمبيوتر، أنتظر انتهاء المحادثة الخاصة بين وفاء وصديقها، انتابني حرج شديد عندما لم تشعر بي وأنا بجوارها، التفتت إلي فجأة وطلبت مني أن أبتعد عن الجهاز لأنها ستفتح الكاميرا، قمت إلى سريرها القابع في الزاوية، وغطيت وجهي لكن راقبت ما يحدث من وراء الغطاء...

في الصباح ذهبت إلى جدتي وقد قررت أن أعلمها برغبتي في الرحيل إلى القاهرة، سأسكن في منازل الطلاب في الجامعة وسأشتري جهاز كمبيوتر خاصا بي، وكما توقعت رفضت وبشدة، كانت تلك هي الخيبة التي جعلتني أرتب لخطة ما، فقط أحتاج إلى المال، حاولت التوسل إليها وهي تربت على كتفي وأنا جاثية أمامها، لكنها قالت بعد ابتسامة رقيقة: «يا بنيتي، كوني حذرة، فالعالم لا ينتمي إلى الملائكة فقط، هناك شياطين أيضا، انتبهي لقلبك جيدا، واستمتعي بطفولتك، ولا تتعجلي أمرا هو آتٍ لك لا محالة».

حزنت كثيرا لأنني سأفارقها، لكن هي من اختارت هذا الطريق، فما المانع إن تركتني أخوض التجربة وحدي؟

بعد مفاوضات استمرت طوال الإجازة وبعد ترتيباتي الخاصة مع وفاء كنت قد قدمت بياناتي عبر الإنترنت ولم يبقَ سوى زيارة مني شخصيا إلى الجامعة حيث يتم كل شيء. في منتصف ليلة ما وقبل موعد الدراسة بأيام كنت قد جمعت كل ما يخصني في الغرفة التي شهدت كل أحلامي ومشاعري وخوفي وقلقي وخواطري وذكرياتي، حقيبتي الصغيرة كانت ثقيلة جدا، عندما ألقيت بها من نافذة غرفتي أحدثت ذلك الصوت الذي ينتج عادة من انفجار قنبلة، فتحت باب الشقة الخشبي برفق ليخرج بسبس ويسبقني إلى مدخل المنزل. ثم اتجهت إلى غرفة جدتي الغارقة في النوم كعادتها، قبلتها كما يفعل كل هارب في الأفلام ثم فتحت دولابها وأخرجت صندوقا صغيرا وفتحته لأجد فيه ظرفا من تلك الأظرف الصفراء الحكومية، به تركتي من مال أبي، أخذته وتركت لها رسالة تفيد بذلك وتفيد أيضا بأنه لا مجال للعودة، فسأكمل دراستي وأستقل بذاتي في القاهرة، حتى تأتي هذه الفرصة الرائعة التي أسافر فيها حول العالم. أخبرتها أن هاتفي الشخصي لن يغلق، وأنني لن أدعها تقلق علي، ولن أفعل شيئا يجعلها تخجل مني.

ثم خرجت من الغرفة ببطء والساعة تدق الواحدة صباحا، وجدت بسبس نائما بداخل حقيبتي. هذا الشقي العجوز أصبح البرد يؤذيه، حملته وانطلقت نحو محطة القطار لنستقبل اليوم الجديد تحت سماء العاصمة.

❋❋❋❋❋❋❋

نوميدوس...

كلمات حبريت لم تكن مزعجة أو مفاجئة لي، فأنا أعلم تماما أنها ستلتقي برجل من بني البشر وستعشقه، ولكم تمنيت أن ينتهي أجلي قبل ذلك اليوم. ترى هل ستجد فعلا رجلا يشبهني، أو بالمعنى الأفضل يشبه الفارس الذي يزورها كل ليلة في الحلم بحلته الأنيقة وقوامه الممشوق وجنونه المذهل؟ لقد جعلت مهمة ذلك البشري المجهول تقريبا مستحيلة. قد تجد الرجل الوسيم ذا العين الرمادية، لكنها لن تجد رجلا وسيما وذكيا وصبورا وحنونا، الرجل في بني البشر إما وسيم مغرور جاهل، وإما مثقف حنون قبيح، أو جميل وحنون ومنافق، تتناقض كثيرا صفاتهم ولا يكتملون، الله لم يخلق بشرا كاملا، ولم يجعل على الأرض رجل خيرا من مصطفاه، صلى الله عليه وسلم، فلتبحث إن شاءت عن رجل يتخلق بأخلاق النبي، لا أعدها بأنها ستجده...

كنت في منزلها عندما وقفت جدتها تحملق في الغرفة وتبحث عن صوت المسجل الملقى تحت السرير والخوف يتسرب إلى عقلها. عندما يسكن جني في ركن من أركان البيت فللأمر قدسيته، شعرت العجوز بهذه القدسية.

وأخيرا تخلصت منها ومن وفاء أيضا، سنذهب إلى القاهرة الكبيرة المزدحمة ونمرح معا ولن يمنعني عنها أي مخلوق على هذه الأرض.

في القطار السريع كانت الأشجار تجري بسرعة كبيرة خارج النافذة وكذلك المنازل والأبنية، كل شيء في المدينة يسرع هربا من عيون حسناء، بقيت فوق كتفها وهي تقرأ ديوان شاعرها المفضل تاركا خصلات شعرها –الطائر بفعل الهواء– تلامس وجهي وتركت عطرها يصبغ روحي... لم ننتظر كثيرا حتى استقرت رحلتنا أخيرا في غرفة متواضعة في سكن بالمدينة الجامعية، حيث تطل شرفة الغرفة على النهر من بعيد، كانت الغرفة أشبه ما تكون بقوقعة في قاع المحيط، مظلمة، باردة، آمنة، خالية من أي مخلوق ذي روح سوى جميلتي.. وأنا، أنا الظلام الذي يحيطها وأنا السماء التي تظللها، وأنا الهواء الذي يطوف حول قلبها ويخرج مجددا... أول ليلة لي معها وحدنا.

استيقظت جدتها في هذا الصباح لتقرأ الرسالة المتروكة لها ثم تلعن ذلك اليوم الذي رأتها فيه، لم أستطع تمالك نفسي، كدت أن أقتلها لكني صببت جام غضبي في هذا المصباح الكهربائي ليصدر صوت فرقعة تشهق لها العجوز وترتعد خوفا. بقيت في غرفتها وحدها حتى أتت جارتها العجوز الأخرى، تلك المرأة التي تلقت على يديها طفلتي حسناء في تلك الليلة الميمونة من ليالي الشتاء. ظلت الجدة تتحدث مع هذه

القابلة عن شقاوة حسناء وطيشها، لكن الحديث انتهى بأن تقبلت الوضع وانتهى أمرها.

أن تدرك منذ اللحظة الأولى في لقائك مع من تحب أنه سيفارق الحياة ذات يوم، وستحرم من تلك البسمة المفعمة بالفتنة، ستنظر يوما إلى هذه الملابس الرائعة التي تحيط بجسدها لتجدها خاوية باهتة، ألم لم أجربه قبل اليوم. لذا أريد أن أشبع روحي بها، أقرأ خواطرها في تلك الأجندة الزرقاء عني وعن رحلاتنا، تعشقني، تتمنى أن تجد رجلا يشبهني فعلا، تقول إنني أتحمل جنونها ورغباتها، تقول إنها عندما تفكر في شيء في الواقع تجد فارس أحلامها يحقق لها ذلك الشيء في الحلم. وأجمل ما كتبت أنها تتمنى لو أن الحياة حلم كبير لا تصحو منه أبدا لأنها تريد البقاء بصحبة الفارس الذي يحقق الأمنيات.

في صباح يوم ما كتبت أنها ممتنة لي حقا لأنني جعلتها تذهب إلى ذلك البرج الكبير في مدينة باريس، تقول إنها كانت تنظر إلى صورة في غرفة وفاء وتشعر بشوق كبير إليه... الشوق يا فاتنتي هو ما أخشاه حقا، سأشتاق إليك كثيرا.

****

حسناء...

أن تأتي إلى القاهرة لأول مرة في حياتك هو بمثابة مغامرة حقيقية، غرفتي الجديدة هادئة باردة جدا في الليل، شعرت أنني لم أكن وحدي لكن... رحلة في قطار النوم العميق كانت ملاذي.

في الصباح ذهبت بصحبة بسبس في رحلة استكشافية في أحياء القاهرة، سيرا على الأقدام وكأنني سائحة كهؤلاء السياح المبعثرين في مدينتي في النوبة. أدركت حينئذ ذلك الشعور العميق بالدفء، العمارة الإسلامية في المساجد بالقاهرة وروعة مجسدة، كما تشعرك المتاحف المصرية بكمّ الحضارة التي توصل لها الفرعون المصري القديم، كذلك الأمر مع الأبنية القديمة التي ما زالت محتفظة بعبق الثمانينات، كنت أشعر برائحة أبي في شوارع المدينة، وتفصلني عن تلك الرائحة مناظر السيارات والأصوات المتعالية جدا. في نهاية اليوم كان الزحام مميتا، لدرجة لم أكن أتصورها، القاهرة تشعرني بأنني أقف في مجرة منفجرة لتوها، لم يختلف الأمر كثيرا عما رأيت في الأحلام، لكن إن أخبرت أي أحد بهذا الأمر سيسقط على الأرض ضاحكا. من الأفضل أن لا أتذكر أحلامي الآن وأنا في أرض الواقع.

وقفت أتأمل جهاز لابتوب رأيته أفضل بكثير من جهاز صديقتي المكتبي الكبير، وقررت أن أشتريه في أقرب وقت، وبالفعل لم يمضِ على وصولي إلى القاهرة سوى أيام قليلة حتى امتلكت ذلك اللابتوب وصرت أستخدمه بمهارة عالية، كذلك التحقت بالجامعة وهناك التقيت بأصدقاء كثيرين تبادلت معهم أرقام الهاتف والبريد الإلكتروني... حياتي في القاهرة مغامرة تستحق أن تدوّن وتخلّد في التاريخ!

استمتعت بكل أمر يحدث لي ودونت يومياتي في أجندة أبي الزرقاء، تلك الذكرى التي حصلت عليها من منزلنا، وفي تلك الليلة وأثناء جلوسي على سريري الذي تعبت كثيرا حتى وضعته في وسط الغرفة كما اعتدت، فأنا في هذه الهيئة أشعر بأنني ملكة على عرشها فعلا، فجأة سمعت صوت أذان الفجر وكأن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الصوت.

- «لماذا لا تصلين؟!».

ثمة هاتف ما سألني هذا السؤال فور انتهاء الأذان! وكأن أحدهم يجلس بجانبي ويهمس قرب أذني مباشرة. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بأن هناك دفئا ما يقترب من أذني ورقبتي. شيء ما يصبح قريبا مني إلى درجة الالتصاق الشديد بظهري أو كتفي، كانت تلك هي حميمية بسبس معي، لكن أحيانا ينتابني شعور مميت بأن الأمر أكبر من قط يداعبني!

منذ رحيل أبي وأمي وأنا لم أصلِّ ولم أفتح كتاب الله... قمت لأصلي لكن لم أجد شيئا في غرفتي يصلح للصلاة، علّمتني أمي أن المرأة إذا وقفت للصلاة يجب أن تغطي جسدها وشعرها بحجاب ساتر، ويجب قبل ذلك أن تتطهر بالوضوء، كذلك يجب أن تتجه إلى القبلة.. من أين لي بالقيام بكل ذلك؟!

اشتريت لنفسي سجادة صلاة بعد ما أهدتني يمنى، إحدى صديقاتي، جلبابا واسعا يوضع على الرأس كي أصلي فيه، ونصحتني بأن أرتدي الحجاب ما دمت مسلمة.

يسمونها في الجامعة الأخت يمنى. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها امرأة منتقبة، لكنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها منتقبة داخل الجامعة. كانت يمنى تتقرب مني بشكل ودي رقيق، ذات يوم أعطتني كتيبا صغيرا عن عذاب تارك الصلاة وعذاب القبر، ثم أعطتني كتيبا آخر عن فضل النقاب وأدلة وجوبه. هذه الفتاة التي لم أتمكن حتى الآن من رؤية شيء منها سوى عيون خصبة جدا، متميزة بلون أخضر بديع، لا تحدث أحدا بداخل الجامعة سوى أساتذتها وصديقاتها المحجبات والمنتقبات. مرت فترة وجيزة كانت تتعامل معي فيها ببشاشة أخت فعلا، لكنني لم أهتم بذلك، لست ممن يفضلون قراءة هذه النوعية من الكتيبات الدعوية، كما أن جل اهتمامي هو دراستي، وعلى الرغم من ذلك فإن فكرة الحجاب بذاتها لم تكن مزعجة لي على الإطلاق. لكن عمر اعترض على هذه الفكرة، عمر هو صديقي المقرب، تعرفت به من

خلال الإنترنت، علاقتنا ليست كتلك العلاقة التي تقيمها وفاء، على الرغم من أنه حاول مرات ليجعل العلاقة تتخذ هذا المسار وفشلت محاولته أمام رفضي. تعجبه سجيتي، يقول إنني ثمرة طازجة لم تمسها يد بشرية بعد، ما زلت بغبار الشجرة التي أثمرتني، دائما ما يضحك من ردود أفعالي الهادئة والطفولية أحيانا.

بشرته الداكنة تذكرني بوالدي، يجب أن أعترف بأنني مغرمة بكل شيء يشبه والدي. عمر يعيش في القاهرة ووعدني بأنه سيأتي للقائي قريبا. أكره رائحة الدخان، لكنه لا يتخلى عن تلك السيجارة في فمه، لذلك أخشى ذلك اللقاء. يطلب مني أحيانا أن أعيد سريري إلى جوار الحائط، فهو لا يستطيع العيش في غرفة غير مرتبة، لكنني اعترضت على اقتراحه ففاجأني بقوله: «عندما نتزوج لن أسمح لك بوضع السرير في وسط الغرفة هكذا»!

أغلقت المحادثة وذهبت للنوم، لكنني لم أجد بسبس. بحثت عنه لكنني لم أجده، قد يكون في الخارج يبحث عن طعام له... خرجت لأبحث عنه في أروقة السكن وأنا أفكر في كلمات عمر «عندما نتزوج.»... أظن أنه شاب مجنون ليتحدث هكذا إلى فتاة لا تربطه بها سوى شاشة زجاجية! على كلٍّ لا يمكنني تقبّل الأمر؛ عمر لا يمتّ إلى فارس أحلامي بأي صلة، بنيته الضعيفة، شعره الملفوف كفروة الخروف، عيناه البنيتان، أسنانه الصفراء التي تكاد تكون سوداء، لا أستطيع استبدال فارسي بهذا الفتى.

كنت أسير بفستان أبيض في حديقة ممتلئة بالزهور كتلك التي نشاهدها في الأفلام، وكذلك كان عمر يقف بملابس أنيقة سوداء وابتسامة جميلة تكشف عن أسنانه المشوهة، يذكرني بالنوبة وأهلها الدافئين. قلبي ينبض بشدة وموسيقى أغنيتي المفضلة تتردد في الحديقة كلها، رفعت عيني إلى السماء لأجد القمر بدرا في تمامه... وفجأة ظهر بسبس من وراء عمر ليقف بيني وبينه، بدت على وجه عمر علامات الذعر وأخذ يناديني لكنني أصبت بصمت غريب عندما ظل بسبس يعبث فوق صدر عمر كأنه يحاول افتراسه، عندها صرخت أنادي: عمر!!!!

شعرت بقوة خفية توقظني من ذلك الحلم لأجد نفسي نائمة في أحد أروقة السكن! قمت من مكاني مسرعة نحو غرفتي قبل أن يستيقظ أحد ويراني هكذا بملابس النوم. بعد أن عدت إلى الغرفة تذكرت بسبس فرجعت لأتفقده، وفي هذه المرة قابلتني يمنى. ثمة آيات تتلى تأتي من مكان بعيد، الصوت يتصاعد من غرفتها وهي تتحرك بحذر نحو الحمام وللمرة الأولى من دون نقاب، رأيت ملامح وجهها، أقل كلمة ممكنة عنها أنها فتنة تتحرك فوق الأرض، ذات وجه ناصع البياض تطل منه روعة اخضرار عينيها. نظرت إلي وابتسمت بشفتيها الصغيرتين ثم قالت: «ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة المتأخرة؟»، ابتسمت في حرج شديد لكن بسرعة قلت لها إنها هي أيضا هنا في هذه الساعة، فقالت باقتضاب: «كنت ذاهبة لأتوضأ كي أصلي». قطع حديثنا خروج بسبس من باب الحمام وهو ينظر إلي وإليها ويموء بصوت خافت.

نظرت إليه يمنى بفزع ثم دخلت إلى الحمام وهي ملتفتة تتبادل نظرات الحقد معه وهو ينكمش إلى صدري ويموء متأسفا عن شقاوته، فعدت به إلى غرفتي لنغطّ في نوم عميق مجددا، لكنني لم أرَ أي شيء في هذه الليلة من خلال الحلم، يبدو أن فارسي انتظرني في الفراش طويلا لكنني غفوت بجوار الجدار خارجا ولا أعلم كيف.

****

حبريت...

«هاهاهاهاااااا... ألم أخبرك يا بني؟ ها هو البشري الهمام ظهر في حياتها عبر آلة حديدية اخترعها البشر، ألم أخبرك عن مكرهم وحقارتهم؟ ألم أطلب منك أن تخطفها إلى هنا وتعيش معها بأمان بدلا من هذه اللعبة الساذجة؟ لماذا أوقفت زبانيتي بعد ما نجحوا في استدراجها خارجا؟ لو صبرت فقط دقائق لجعلتها بين يديك إلى الأبد، لم أكن أنوي إيذاءها، صدقني.»...

كان نوميدوس يستمع إلى كلماتي وهو باكي العينين، غيرته ابتدأت لتوها. اليوم ستلتقي بفارس أحلامها، عمر. لماذا لا يذهب ويجلس معهم على الطاولة ليشاهده وهو يصافحها ثم يقدم لها زهرة حمراء؟ ما الذي يمنعه الآن؟ كنت فعلا أريد معاقبته لكي لا يتخلق بأخلاقه أحد أفراد العشيرة وتدمر مملكتي، لكن حالته التي تسوء كل يوم أعظم عقاب نزل عليه، وسينظرون إليه ويعتبرون.

انظر يا صديقي إلى كوننا الفسيح، إلى هذه المملكة العظيمة وذلك العرش الكبير، عرشي، وأنا.. حبريت العظيم، أبناء أعمامك، وبناتهم، نسائك، مدرستك العظيمة للحكمة، ذريتك القادمة، هل ستترك كل

ذلك من أجل بشرية لا تشعر بك، ولا تعلم عن وجودك سوى أنك مجرد حلم؟ هاهاهاها، أنت حلم يا نوميدوس!

جلست أنتظر من نوميدوس ردا لكنه لم ينطق، ينتحب وحسب. الآن بدأ يشعر بما يفعله من أمور مشينة، كانت السماء تفيض بالغيوم وساحة عرشي تظلم شيئا فشيئا عندما رفع نوميدوس رأسه ونظر إلي بعينين يتطاير منهما الشرر. اقترب مني وهمس: «حسناء لن تكون لغيري، ولو وصل الأمر إلى أن أكون أنا قدرها السيئ فسأكون»... الآن اطمئن قلبي، فقد توحش الحب الساكن بصدره وسينتقم لا محالة، هذه هي سنّة الحب في عالمنا، واليوم ولد حبريت جديد اسمه نوميدوس، صنع نفسه بنفسه حيث أغلق الدائرة عليه مع هذه البشرية التي لم ولن تصبح له في يوم من الأيام.

فلتنزل عليكم اللعنة أيها البشر، في كل يوم يولد منكم آلاف مؤلفة ويموت كذلك ولا تشعرون بنا، كم عاشق كُسر قلبه منا وكم مريض وكم قتيل يسقط تحت أقدامكم.

يا لحقارة الحب... مسكين نوميدوس، الحكيم الذي ولد بداخله قد قُتل منذ ظهور هذه الفتاة، حتى هذه اللحظة لم يدرك نوميدوس أنه هو صاحب القدر السيئ.

******

حسناء...

في نهاية يوم من أيام دراستي وبعد إنهاء مكالمة خانقة أخرى من مكالمات جدتي التي ما زالت تريد مني العودة إليها، قابلت عمر. جاء كما وعدني، وجدته ينتظرني في مقهى الجامعة مرتديا واحدة من تلك «التيشرتات» المنتشرة هذه الأيام، وبنطالا من الجينز. اختفت نظراته الثاقبة التي تخجلني بنظارة شمسية، صورته لم تختلف كثيرا عن التي تظهر أمام الكاميرا المغيمة التي يحادثني من خلالها، نفس البشرة الداكنة والسيجارة المعلقة بين شفتيه، وتميمة بحرف لاتيني معلقة في رقبته. تحدثنا كثيرا لكنه داهمني بجرأة غير عادية عندما همس قائلا: «تملكين جسدا ناريا». شعرت ببرد يسري في جميع أوصالي وتمنيت لو لم آتِ للقائه، أخذ يدي بين يديه وهمس مجددا بنفس العبارة مكملا إياها بـ«ترى مَن سعيد الحظ الذي سيستمتع بهذا الجمال؟!»... لا أستطيع السيطرة على جسدي المرتعد، شعرت أن كل من في المقهى ينظر إلينا ويسمع نبضات قلبي المتسارعة. الحقيقة أنهم كانوا ينظرون إلى عمر وهو يقبل يدي برفق، ثم وقف ودار حول الطاولة ونظر إليهم فتظاهر الجميع بأنهم لا يتابعوننا، فعاد عمر إلى مقعده وهو ينظر إلي ويرتل عبارات الحب. نسيت أن لقاءنا ذلك هو اللقاء الأول، نسيت أنني لم أعرفه سوى من أيام فقط، نسيت أن جدتي قالت لي أن لا أتعجل أمرا هو آتٍ لي لا محالة، ونسيت بسبس الذي اختفى منذ ذلك اليوم.

كانت يمنى تنتظرني على باب المدرج ورائحة الغضب تفوح منها، استوقفتني وهمست لي بأن أتقي الله في ما أرتدي، كانت ملابسي عبارة عن سترة نسائية حمراء وبنطال من الجينز، لا أعتقد أنها تملك الحق في أن توجه إلي النصيحة بهذه الطريقة، لذا سحبت ذراعي من يدها ولم أعطها جوابا.

عدت إلى السكن وتحت الماء وقفت أسترجع كلمات عمر، يبدو أنني فُتنت به وبكلماته الماجنة التي أسمعها لأول مرة في حياتي، يبدو أنني لم أنتبه يوما إلى جسدي وتفاصيله التي تكاد تكون فاتنة لي اليوم! كما يبدو أن الفرسان في الواقع لهم ملامح مختلفة.

ظلام دامس أجبرني على الخروج من تحت الماء، أضأت الغرفة واتصلت بإدارة السكن لتأتي وتصلح عطل الكهرباء في الحمام...

سمعت صوت بكاء آتيا من مكان ما، كانت القاهرة تغطّ في سبات عميق في تلك اللحظة، فقط صوت البكاء، بكاء شخص وليس طفلا، ربما أحد الجيران في الغرف المجاورة يبكي على جرائمه!

لم أعطِ للأمر اهتماما، فقط كنت أتأمل النهر الحالي وأذكر كيف كنت أغسل قدمي فيه مع صديقتي وفاء. حسنا، سأتصل بها لتؤنسني في هذه الليلة الهادئة.

رنين بعيد ثم صوتها الرقيق يأتيني ليخطفني إلى النوبة ورائحة الخبز الشمسي والطمي الذي لم يجف بعد، ومذاق الشمس الذي تغلغل في جدران القرية وأبواب منازلها.

الحنين... مرض محزن جدا ينقض على الإنسان بغتة فيفتك به بلا رحمة ولا شفقة. كانت تسألني عن حالي وحال الجامعة والغربة الأولى في حياتي، أجبتها بهدوء أن كل شيء على ما يرام، ثم سألتني عن الحب، فوجدتني غارقة في الصمت وخيّل إلى أن وجه عمر أمامي في السماء يغمز بعينه الشقية. لا أعلم كيف أخبرك يا صديقتي عن ذلك الرجل، كيف أصارحك بكلماته المجنونة، كيف أفضي إليك بسرّ أحلامي، المقارنة تكاد تكون مستحيلة، لكن علاقتي بعمر تتعمق بسرعة جنونية، كيف تعرفت إليه وكيف التقينا وكيف يتحدث هكذا. صوت وفاء يقطع حبل أفكاري، تريد اعترافا، قلت لها: «ليس الآن، فالكهرباء منقطعة وأنا أشعر بالخوف، قد يأتي أحدهم ليسرقني»، ضحكت وفاء ثم قالت: «أو يغتصبك، أنتِ جميلة جدا يا حسناء»، ثم فجأة انقطع الاتصال...

شعرت أن ما كنا نتحدث عنه يتحقق، برودة الخوف سرت في قدمي كموجة كهرباء شديدة لتصعق عقلي، انتفضت وأنا أستمع لهمس آتٍ من مكان ما، شعرت أن لصا ما هبط من السماء ليقف بجواري مباشرة، زفير هادئ يصعد من صدر مهموم بجوار أذني وأنا في الظلام متجمدة... رن الهاتف أخيرا ليخرجني من هذه اللحظة الجامدة، إنه عمر. أجبت بسرعة ليخبرني أنه اشتاق إلي كثيرا، أخبرته –كذبا– أنني كنت أفكر فيه للتوّ، فسألني بطريقته الشيطانية فيمَ أفكر بالضبط، واستمرت المحادثة على وتيرة واحدة، يشاغبني وأنا أهرب منه، لكن في حقيقة الأمر كنت في غاية سعادتي...

الحب يأتيك من حيث لا تعلم، الحب انفجار مفاجئ كالانفجار الذي أحرق منزلي. تُرى من الذي ستكتب له النجاة هذه المرة؟ أنا أم عمر؟ ثمة

أمر ما بانتظاري مع عمر، حياة مديدة، مغامرة لن أندم عليها، أو تجربة أتعلم منها درسا جيدا...

في الصباح كنت أشعر بإعياء شديد نتيجة النوم أمام الشرفة المطلة على النهر السعيد. سألت نفسي فجأة: لماذا لا أصلي فعلا؟! تذكرت ذلك الهاتف الغريب، ثم سمعته مجددا يقول بصوت رتيب: إذا لم تصلي فستذهبين إلى الجحيم.

كان الصوت نابعا من عمق بعيد في قلبي، لكنه أيضا ينبع من ركن ما في أركان الغرفة. كان الخوف يجتاحني كلما تردد الصوت في أذني...

توضأت ووقفت في اتجاه القبلة على السجادة التي فرشتها لي صديقتي المتدينة تلك، وفي نيتي أن أصلي الفجر. ترى هل هي ركعتان أم أربع ركعات؟! تبا لي، لا أذكر. كنت قد بدأت الصلاة فعلا، قرأت الفاتحة، أكاد أذكرها، ثم ركعت وأنا أشعر بأنني أؤدي على نحو غير صحيح، صليت ركعتين وفي نهاية التشهد تذكرت أبي عندما كنت أصلي برفقته وأنا صغيرة، ينتهي من التشهد ويرفع يديه بالدعاء لي ولأمي وجدتي، ثم يلتفت يمينا ليسلم فيراني بجواره بخمار أمي الطويل، فيبتسم ثم يلتفت يسارا ليكمل السلام وينهي صلاته ثم يحملني وهو يتمتم بشيء ما ويبتسم حتى ينتهي من ذلك فيقبلني قبلة هادئة لن أنساها أبدا، ويهمس لي أن أذهب للنوم مجددا حتى تطلع الشمس. إذن فصلاة الصبح ركعتان. انتهيت منهما وجلست لأتمتم مثل أبي، ورغم أنني لا أعلم ما الذي كان يقوله في هذه التمتمة لكنني دعوت الله أن يقبل هذه الصلاة مني.

الصلاة.. تأملت سنوات عمري السابقة من دونها، فتاة ليست سمراء كأهل بلدتها، وتعيش بين غرفة نومها ومدرستها وصديقتها، تحرص على كتمان سرّ ما، تتنقل بين أهل القرية سافرة بخصلات متمردة، لماذا لم تعلمني جدتي الصلاة؟ يبدو أن الفجوة الزمنية بيننا جعلت التواصل مستحيلا تقريبا.
أذكر أنني كنت ألمحها بين حين وآخر تصلي، لكنني لم أهتم لأسألها، منذ متى وأنا أسألها عن أي شأن يهمني؟

قمت بعد تفكيري العميق ذاك أبحث عن مصحف في غرفتي، فلم أجد. كم كنت ضئيلة متساهلة في أمر ديني، خرجت أبحث عن يمنى، حتما سأجد لديها مصحفا، وبالفعل وجدتها متجهة إلى بوابة المدينة بملابسها الفضفاضة السوداء، ناديتها وطلبت منها مصحفا فرحبت بي جدا، وعادت معي إلى غرفتي لنجلس معا، اختلفت يمنى في هذا الصباح عن يمنى التي أمسكت بذراعي أمس ونهرتني بشدة، حدثتني برفق كبير وجلسنا معا نقرأ القرآن...

******

نوميدوس...

كتبت لها رسالة واحترت كيف أرسلها إليها، هل لو أرسلتها من خلال وسيلة بشرية ستهتم بالأمر؟ أشك في ذلك، حملت رسالتي وانتظرت أن تخرج من الحمام وتكف عن التفكير في ذلك اللعين عمر، لكنها لم تفعل، فاضطررت إلى إغلاق الكهرباء، خرجت لتقف في الشرفة تتأمل، كنت أبحث عن طريقة، طريقة مقنعة تدخل الأمر إلى عقلها، ولم أجد بدا من خوض هذه المغامرة...

شعرت بقربي من وجهها، كان عبير أنفاسها يلهب صدري، للمرة الأولى أقترب منها قربا حقيقيا بدلا من مداعبات القط بسبس لها، عبقها، ملمسها، وحتى خوفها النبيل، كانت قطعة من الفردوس بين يدي، تشعر بلهيب صدري واضطراب خافقي، لم أكن أتوقع أنني ذات يوم سأصل بقلبها إلى هذه النقطة، لكن لكل لذة ذروة نصل إليها ثم نهبط من جديد. كان اتصال عمر هبوطا مفاجئا قاتلا للذتي بقربها، لم أشأ أن أزعجها أو أثير الخوف في قلبها أكثر من ذلك، تركتها تحادثه حتى نامت الفاتنة وبقيت بجوارها.

ينبغي علي أن أدخل الآن إلى عالمها كي أذهب بها إلى أكثر مكان تعشقه في العالم، وهناك سأوقظها، لتدرك أنها في واقع، واقع أحملها إليه

كل مرة... نظرت إلى وجهها الملائكي النائم، قبلت أناملها واستنشقت رائحتها الشهية، تشبه قطرة ندى لم تختلط بالتراب بعد، تهت في غيابات جسدها، كما لو أنها عروس في ليلة زفافها، لم أستطع مقاومة الولوجِ إلى فتنتها...

في الصباح استرسلت الشمس في تقبيل كل موضع قبلته منها ليلا، أصبحت نجمة، كل ذرة في تكوينها تلمع، فتحت عينيها وأنا أمام وجهها مباشرة، كانت تشعر بالإرهاق.. عذرا يا طفلتي، قربك يلهب مهجتي. لم أستطع... حزنت وتمزقت خواطري عندما لم تذكر أي شيء من هذه الليلة وكأنها لم تحلم، وقفت تفكر في أمر الصلاة، أخبرتها أن من لم يصلِّ هو في الجحيم لا محالة. عاد الخوف يملأ عيونها وبدأت تتذكر والدها، بقيت في صمت حتى قامت إلى الصلاة...

وقفت بجلباب الصلاة وكأنها ملَك قائم بين السماء والأرض، كانت كيوم مولدها، موشحة بالبياض ووجهها الساحر يطل من أعلى قامتها كأنها بدر ينظر بعطف إلى أهل الجنة، ثم فزعت قائمة إلى الخارج. كانت تبحث عن صديقتها المنتقبة تلك، وبعد قليل عادت إلى الغرفة بها وجلست تقرأ معها القرآن. كانت الطمأنينة تخطو خطواتها الأولى نحو قلب حسناء كما لم تطمئن من قبل، أشرق وجهها وازدادت ابتسامتها نورا وفتنة، بقيت صامتة تستمع إلى يمنى التي استرسلت في الحديث عن فرضية الحجاب وشروطه وأحكامه، كانت تتسلل إلى عقل طفلتي بهدوء

وروية، بدا على ملامح حسناء أنها اقتنعت، كما رحلت صديقتها وهي متوشحة بالرضا والانتصار. وفجأة... رنين...

أكره رنين هاتفها، أكرهه. ذهبت إلى الشرفة في محادثة مع اللزج عمر مجددا... كدت أحترق في تلك الساعة، لم أستطع التحكم في غضبي عندما أسقطت الهاتف من يدها ليتحطم على أرضية الغرفة فصرخت حسناء وانكمشت لدقيقة بين ذراعي، كنت أهدئ من روعها وأعتذر عن غضبي، لكنها لا تشعر بي، ماذا عساي أن أفعل يا طفلتي وأنا أراك تغرمين بسرعة جنونية برجل مزيف كاذب؟! بعد هذه السنوات من حرصي عليك يأتي هذا الكائن ليخطفك مني؟!

ابتعدت عنها وهمت على وجهي وأنا أفكر في حيلة أخدع بها حبريت كي لا يأمرني بإنزالها إلى العالم السفلي في القاع، بينما ذهبت المشاغبة لمتابعة محاضراتها، لاحقتها وهي تسير بهدوء، أسمع صوت صدرها وهي تتنفس بعمق وبسرعة... في نهاية اليوم اصطحبتها يمنى إلى نزهة بين المسجد الذي تتلقى فيه العلم الشرعي وبين أزقة مصر القديمة الدافئة، إلى أن انغمست الشمس في عذوبة النهر. وقفت حسناء تتأمل النهر وهو يحتضن الشمس بكل قوته وهي تقاوم الغرق بلا جدوى، ثم التفتت صوبي، حدقت النظر، عيونها تأسرني، ترى ماذا سيحدث عندما تراني؟ هل الخوف المعتاد الذي نلقاه كردة فعل طبيعية من البشر تجاهنا سيكون ذاته؟! كانت يمنى تقف بجوارها تسألها عن رأيها في الكتيبات التي أهدتها لها، شردت حسناء ولم تجب فقالت لها: «حسنا، استمعي إلى هذا إن لم

تعجبك الرقائق»، كانت تمسك في يدها شريطا من شرائط الكاسيت مسجلة عليه إحدى محاضرات شيخها. وضعته في حقيبة حسناء التي أطبقت في خشوع وهي تتأمل الغروب الذي يضفي على النهر بهجة وفتنة.

في المساء عدنا فاستلقت مجهدة على سريرها، تركتها عندما ذهبت في رحلة عميقة للنوم، ورحت لهذا المزعج عمر، في مقهى قذر يجلس الحقير وسط صحبة لا تكاد تختلف عنه كثيرا، يتحدث بصوت مرتفع والدخان يخرج من فمه وأنفه أكثر من غضب حبريت، يحدّث أصدقاءه عن تلك الفتاة الساذجة التي ستسقط ضحية نزواته الرخيصة، يقول لهم إنها تميل إلى ذلك الجو الركيك من البراءة والعفة لكنه سيستمر في محاولاته حتى يثبت لهم بالدليل أنها كمثيلاتها ممن يستخدمن الإنترنت في ممارسة البغاء.. تبا لك يا لعين!

انتهت جلسته القذرة مع أصدقائه واتجه إلى منزله وهو يترنح من فرط الخدر الذي يسري في دمه، كان لا بد من أن أواجهه. ظهر له القط بسبس وظل يسير خلفه في الظلام، التفت وهو لا يدري ماذا يفعل، نظر في عيني، أطلقت في وجهه صرخة بدت للسامع كأنها مواء يصدر في مشاجرة بين القطط، قفزت على وجهه وانهلت عليه ضربا، كان يحاول التخلص مني ويدفعني لكنه لم يستطع، تركت في وجهه آثارا ستذكره دائما بأنه تجرأ يوما واقترب من فتاة عشقها نوميدوس.

في الصباح كانت فتاتي برفقة يمنى، أصبحت تحب التجول معها في كل مكان، وفي هذه المرة كانت ترتدي ملابس سوداء كملابس صديقتها، كانت تسير برفقتها وهي في غاية السعادة، كانت في هذا اليوم محط أنظار الطلاب والطالبات، يتهامسون عن هذه الفتاة التي تحولت فجأة، بعضهم سخر من الأمر وبعضهم من أصدقاء يمنى كان في غاية السعادة والسرور، أما أنا فقد كانت واحدة من أمنياتي أن أخفيها عن عيون كل ما خلق الله فوق الأرض وتحت الأرض...

****

حسناء...

علاقتي بيمنى هي العلاقة الآمنة الآن، هي التي تشعرني بالقوة والثقة، عندما وضعت الحجاب على رأسي في ذلك الصباح كنت في غاية السعادة والفخر، لا أنكر أنني اختنقت ورؤيتي أصبحت غير واضحة، لكنْ ثمة أمر ما مميز في هذه التجربة، العباءة والنقاب اللذان يشعان وقارا وسكينة، كنت بداخلهما كطفلة صغيرة تنظر إلى العالم من خلال «طاقية» الإخفاء، ورغم أن عيون الطلاب كانت تلاحقني وهمساتهم كانت تصل إلى أذني، لكن أحدهم لم ينزعج مثلما انزعج عمر عندما فتحت المحادثة معه، كنت متلهفة جدا لأرى تعبيرات وجهه وانطباعه حيال نقابي ووضع حياتي الجديد، كان استياؤه شديدا جدا، كان وجهه ممزقا كما لو أن أحدهم قام بتشريحه، كانت إحدى عينيه مغطاة بضمادة. سألته بقلق عمن فعل به ذلك لأتلقى منه ردا غريبا أدهشني، قال لي إن بسبس هو من فعل ذلك!... كان قلقي عليه أشد من غرابة ذهاب بسبس إليه.

بقي عمر يحتسب ويسبّ القط، كانت رائحة بسبس في هذه اللحظة تفوح من ملابسي ومن فراشي ومن ستائر الغرفة، أشعر أنه هنا في مكان ما يلعب معي لعبة الاختباء، ناديته وأسهبت في النداء لكنّ أحدا لم

يجب. قلت لعمر إن بسبس مختفٍ منذ فترة كبيرة، فقال لي إنه أصبح قطا من قطط الشوارع، وظل يتوعد له بالقتل والحرق والأذى.. إلى أن انقطع الاتصال بيننا.

منذ أتيت إلى القاهرة وهناك شيء ما غير طبيعي، جسدي المرهق، اختفاء بسبس، رائحته التي تفوح وتنتشر فجأة، تلك الهمهمات التي تتردد بجوار أذني قبل النوم وقبل الاستيقاظ، وحتى أحلامي التي كنت أحلمها لم تعد تأتيني..

في الصباح كان هاتف عمر مغلقا، والقلق يحاصرني من كل اتجاه وليس لي سوى الصلاة والدعاء. أتت يمنى تدعوني إلى حلقة من حلقات التعلم فلم أستطع الاستجابة لها، نظرت إلي طويلا وفي عينيها نوع من القلق لم أعهده على وجهها وهي المطمئنة السمحة، أو غاضبة مستاءة من منكر ما.

قالت لي: «هل تنامين في الليل جيدا؟»، قلت لها إنني أسهر أحيانا، فقالت لي إن وجهي مرهق جدا، ثم قبلت جبهتي وطلبت مني النوم جيدا، ثم رحلت. أغلقت باب غرفتي وجلست أنتظر خبرا، أعدت اتصالي بعمر مرة ثانية، فقال إنه في طريقه إلي... قلت له: «أنت مجنون! لن يُسمَح لك بالدخول إلى سكن الطالبات، مستحيل!»، فقال: «لا تقلقي، إن لي طريقتي الخاصة..»، وانقطع الاتصال.

دقائق قليلة وكانت طرقاته على الباب هادئة خافتة تلمس شغاف قلبي، استقبلته في غرفتي متعجبة كيف صعد إلى هنا بهذه السهولة، والأكثر غرابة من ذلك، كان وجهه متعافيا تماما من تلك الجروح وعيناه سليمتان...!

وقبل أن أسأله بدهشة كيف استطاع الوصول إلى غرفتي، نظر إلي نظرة جريئة جعلتني أبادله النظرة دون أن أنطق، ثم مد يده ورفع الغطاء عن وجهي، كانت عيناه في تلك اللحظة تفيضان حبا، لكنه التفت صوب النافذة وقام إليها ليغلقها، ثم ابتسم وأخبرني أنه لا ينبغي أن يراه أحد في غرفتي. هذه هي المرة الأولى التي أصبح فيها وحيدة برفقة رجل في غرفة مغلقة لا يرانا أحد، التوتر الذي لحق بأناملي كان كافيا ليجعلها متجمدة باهتة تتحرك بعشوائية شديدة، عيناه تسريان عبر شراييني وتخترق قلبي الذي أوشك على الهلاك، بدأت أنامله تلامس يدي الساكنة فوق طرف السرير، وهمساته تذهب بي إلى عالم أظن أنني ذهبت إليه من قبل، عالم يشبه قبلات حارة وردية اللون ونجوم تبرق وتلمع في كبد السماء المضاءة بالشمس الدافئة، كنت غائبة عن العالم الأرضي ولم أفِق من ذلك الغياب إلا عندما انتبهت لعمر وهو يحاول الاقتراب مني بهيئة حيوانية، كنت أشعر بأنه ينظر إلي نظرة الذئب إلى فريسته الشهية ويداه تحاولان السيطرة علي، حاولت أن أصرخ لكنني لم أستطع، تمنيت أن تصبح هذه الساعة كابوسا مزعجا ويأتي أحدهم ليوقظني منه...

لحظات وتحققت أمنيتي الثمينة، طرقات قوية على باب الغرفة جعلتني أقف خائفة متنصلة من قبضته وهو ينظر إلي نظرة الظافر المنتصر، ألقى بالنقاب في وجهي واتجه نحو باب الغرفة ليفتح للطارق فقلت له: «انتظر! لا ينبغي أن يراك أحد هنا. أليست هذه كلماتك؟»، ابتسم ثم وقف خلف الباب حتى يتسنى له الخروج، ففتحت الباب لتدخل يمنى ويخرج هو من ورائها. لا أعلم لماذا عادت، ربما أرسلها الله لتنقذني مرة ثانية كما فعلت وأنقذتني من عقاب يوم الدين، باتت سيرة عمر منذ هذه اللحظة تثير امتعاضي، لاحظت يمنى تغير حالتي المزاجية وطلبت مني أن أتوضأ وأصلي...

******

حبريات...

يظن نوميدوس أن باستطاعته الاستمرار في لعبة العصيان تلك دون عقاب، لكن ما فعله بهيئة عمر سيبقيه دائما خارج سياق المسرحية، كانت سعادته كبيرة عندما انتقبت إنسيته، لكنه نسي أن الحجاب ينبغي أن يكون حجابا بالقلب أولا، فها هي تسهر مع صديقها، وتحدثه وتفكر فيه، وحتى إنها قبلت أن تستقبله في غرفتها، إن لم يكن نوميدوس هو المتلبس بهيئة عمر وإن لم تكن هذه هي خطته للإطاحة بصورة عمر أمام فتاته فإنها في تلك اللحظة كانت سترضى بأن يكون عمر الحقيقي معها في غرفتها. حتى هذه اللحظة والإنس يتناولون الشعائر الدينية بالمظاهر فقط، حتى يومنا هذا والفتاة المنتقبة تعد رمزا للعفة والشرف والحياء والدين، رغم أنني أعلم تماما أن ذلك ليس صحيحا دائما، كما أن السافرة ليست بالضرورة فاجرة ومتدنية كما يقولون.

نوميدوس الآن ينظر إلى حسناء بنفس نظرة مجتمعها الإنسي البغيض، يحاسبها حسب ما ترتديه. أليس من حقها أن تخطئ، أن تعشق، أن تقف لالتقاط صورة ما؟

قطع نوميدوس الاتصال الجاري بين عمر وحسناء لأنها رغم ارتدائها للنقاب لكن عقلها لم يزل يفكر في عمر بطريقة ما. استيقظت في ذلك

الصباح خائفة عليه، تفكر فيه، لم تولِ أمر القط اهتماما، والآن نجح نوميدوس في جعلها تكرهه وتخشى لقاءه مرة ثانية.

على صعيد آخر، فقد أحاطها بهالة من الحظر تمنع عمر من رؤيتها أو التفكير بها. أنانية نوميدوس وطفولة عشقه تثير شفقتي، تلك هي مساعيه منذ التقى بها قديما، يود لو يستطيع أن يسكنها بداخل قارورة ماسية قابعة تحت قاع المحيط في قوقعته.

لكن الآن انتهت مهلته في إدراك ما فاته من فرص للعودة إلى عالمه، يجب عليه الآن الاختيار، إما أن يعود بها إلى هنا وإما يوقف هذه المهزلة الساذجة.

كالعادة عندما يجد صعوبة في الاختيار يبقى بعيدا عن مواجهتي، لكن تلامذته يتعجلون أمره، يتصيدون أخباره وآثاره. راميس تبحث عنه وتنتظر الفرصة المواتية حتى تستطيع الوصول إلى هذه الفاتنة التي شغلت الحكيم نوميدوس...

راميس هي جاريتي الأفضل من بين بنات الجن جميعهن، هي الوحيدة التي تعشقني ولا تطيق بني الإنس جميعا، فقط لأنها تعشقني، تزعجها أخبار نوميدوس ومحاولاته في أرضاء حسناء، على الرغم من أن أختها تتوق إلى الصعود عاليا لكنها تمنعها، وتحكم سيطرتها عليها. ربما كانت كراهيتنا للإنس هي العامل الأساسي في قربها مني والتودد إلي، راميس رغم أنوثتها الطاغية لكن غضبها غضب وحشي، ولا شيء يمسكها عن

قتل حسناء في محاولة لإرضائي سوى أمري لها ولكل أفراد العشيرة بعدم المساس بحسناء، تلك التي تمضي الوقت دائما برفقة يمنى بين الدروس والمحاضرات، وفي الليل تمكث أمام جهازها الإلكتروني تبحث عمن يسلي وحدتها، تحادث وفاء صديقتها القديمة لتسمع منها ما لذ وطاب عن الحب والولع والشوق، فتبقى حائرة بين ما تسمعه من يمنى وما تلقيه على مسامعها وفاء، بين رغبتها الشديدة في حبيب يملأ وحدتها وبين عفافها وعالم الزهد الذي اختطفتها إليه يمنى، ونوميدوس بين هؤلاء ساقط تحت قدميها. أرسلت إليه تحذيري الأخير، قبل أن تتخذ راميس موقفا فعليا من فتاته الجميلة، والآن أصبحت مهمته هي إنقاذها من يدي راميس.

****

حسناء...

لا شيء في هذه الحياة أجمل من وقوفك بين يدي الله مغمض العينين قليلا، خاشع القلب نادما على ما فاتك من لذة القرب، ترتل آيات القرآن وتسير بين الخلق بزي مشرف لا يوحي بشيء للرائي سوى باحترامك وقوة إيمانك. كانت يمنى تقول إن قلبي طاهر نظيف، ولا بد أن تصبغ عليه الرحمة والسكينة، قالت مازحة: «اتركي لي نفسك تماما وسأجعلك واحدة مختلفة تماما». مرت فترة كبيرة لم أشعر فيها بشيء سوى غياب عمر وقبله غياب بسبس، فأصبحت فارغة خاوية كأنني أرض خصبة غابت عنها قطرات المطر فتصحرت، على الرغم من أنني في هذه الأيام دون غيرها كنت لا أفارق يمنى ولا حلقة الدرس، لدرجة أن المعلمة التي تلقي على مسامعنا المحاضرات أصبحت تفتقدني إذا تغيبت عن الحلقة، بل وأحيانا تأتي إلى غرفتي في المدينة الجامعية لتعطيني المحاضرات إذا كنت مريضة. شعرت بأنهن عائلة صغيرة متكاملة، المعلمة هي الأم الكبيرة، هي امرأة مات زوجها –كما يقولون– شهيدا، وتولت من بعده رايته، فأصبحت تمضي حياتها بين المساجد والمنازل في الدعوة، ثم تطورت دروسنا حتى وصلنا إلى باب «الجهاد في سبيل الله»، وهنا كانت جميع محاضراتنا عبارة عن جلسات دامعة. أدركت حينها أن المجموعة كلها تقريبا بين زوجة لشهيد أو خطيبة لشهيد أو أخت لشهيد،

ومنها تطورت علاقتنا فبدأت علاقتي ببعضهن تتخذ شكلا أعمق، استمعت إلى قصص لم تخطر لي على بال، توطدت علاقتي بهن من خلال التواصل الإلكتروني، علمت في ما بعد أنهن يتبعن سياسة معينة، وهي سياسة الطاعة والتفاني في سبيل هذه الطاعة، وعلمت من أصدقائي الآخرين أن هذه الفئة من المجتمع هي فئة محظورة سياسيا. كنت كمن وقع في فخ كبير، وها أنا ذا أتعجل أمرا آخر من تلك الأمور التي غالبا ما كنت لأقع فيها لو كنت برفقة جدتي.

كانت براءة يمنى ورقة أخواتها شيئا لا يضاهى، رغم ما يقال عن هذه الجماعة المزعومة من كونهم جماعة مخربة وإرهابية. يبدو أن لكل شيء وجهين في هذه الأرض.

مرت فترة كبيرة وأنا برفقة يمنى، أذهب معها للدرس وأتعلم منها السماحة وفن النصيحة والموعظة الحسنة، لكن في وقت ما كانت تختفي ولا تخبرني إلى أين تذهب، كما أن ثمة أمرا ما كان يحدث لي.. كنت أشعر بأن أحدهم يقترب مني في تلك الليالي الباردة، وفي حرارة الصيف كان قربه بمثابة نسمة باردة متجلية من السماء إلى فراشي مباشرة. حاولت أن أترك قلبي يذوب كاملا في معية يمنى وبقرب جماعتها، لكنّ شيئا ما بداخلي كان يرفض ذلك الذوبان، حتى ذلك اليوم...

******

نوميدوس...

الأزمة الأخلاقية في عالم الإنس قد تخطت كل حدود الاحتمال، ذلك ما علمته من خلال مراقبتي لحسناء في ذلك اليوم تحديدا. لكل إنسي من بني آدم قرين يلازمه حتى في أحلك لحظات حياته، كانت ليمنى قرينة اندفاعية لا تكف عن الحراك، بينما كانت يمنى تجاهد هذه اللوثة التي تطيح بعقلها أحيانا، ذلك ما أدى إلى التحاقها بالركب المحظور، ذلك الركب الذي اتشح بوشاح الفضيلة والالتزام، وعلى النقيض تجد بعضهم يواري سوءته دائما خلف ذلك الوشاح النبيل.

في صباح هذا اليوم كانت حسناء بين ذراعي غارقة في نشوة مستعرة، شعرت في تلك اللحظات أنها أجمل حورية خلقت على هذه الأرض، بل ربما أجمل حورية خلقها الله في ملكوته. همت في جمالها وهي بين اليقظة والنوم تتقلب في حلم لم يدُم طويلا، فقد أفزعتها مكالمة عاجلة من يمنى، تستدعيها على الفور. التف القلق حول طفلتي كما تلتف الأصلة حول جسد فريستها، تهيأت للخروجِ وهي في حالة من التوتر الشديد.

في ساحة الجامعة اشتد الزحام وتمسكت كل واحدة بيد زميلتها أو أختها، تلك كانت مظاهرة، مظاهرة ضد حكومة ما تحكم هذه الدولة التي تحكم على الشخص بهيئته دون باطنه، ثم يتطور بها الأمر إلى

إصدار الأحكام حسب حالتها المزاجية دون النظر إلى أي اعتبار آخر. في المظاهرة حسناء وحيدة لا تعرف أيا من هؤلاء، لا تعلم لماذا خرجوا، لماذا يرفضون هذه السياسة، ولماذا هم دون غيرهم منبوذون مهمشون!

بعد بحث لم يدُم طويلا حيث ساعدتها في الوصول بعينها إلى يمنى التي وقفت في الصفوف الأمامية هاتفة بحماس كاد يفطر قلبها، لم يستطع قلبي تحمل هذه المغامرة التي ستخوضها حسناء، تسير بين آلاف من البشر بينهم من كانت سريرته نقية، وبينهم من تباينت معايير الالتزام في نظره فوجد أن ما هو سري لا يطلع عليه البشر فهو مباح متاح، بينما ما هو أمامهم فينبغي عليه أن يتخذ حذره، كما كان بينهم من كانت رغبته تشبه رغبة الدود بين الجثث، لا شيء سوى الانتفاع والانتفاع إلى آخر قطرة.. فئات متعددة تقع بينهم زهرتي البرية النادرة، ولا تنتمي إلى أي منهم.

تتأملهم في حنق وخوف، حتى فزع الجميع وهرولت الأقدام وبعثر الجمع المختلف ذاك لتسقط يمنى مضرحة بدمائها، هرعت إليها حسناء في فزع شديد. كيوم الحشر كانت تلك الساعات، لا يبحث أحدهم إلا عن نفسه أو من له به قربى، جلست حسناء متعثرة في نقابها وعباءتها الطويلة بجوار يمنى التي بدأت روحها في التخلي عن هذا الجسد، لحظات وانسدل الستار على وجه يمنى الشديد البراءة وصعدت الروح النقية إلى بارئها، كما خمدت شعلة الاندفاع المتأججة في قرينتها الخافتة على الرصيف في المقابل، وسالت دموع الحزن والجزع على وجه طفلتي. لم

يصادفني ذات يوم موقف كهذا الموقف، شعرت بعجزي عن مقاومة الحزن، لم نستطع إكمال لحظة وداع تليق ببراءة يمنى وطهارتها، فلقد أتوا من يحملون السلاح ليسحبوا حسناء من ذراعيها إلى حيث تطرح الجريمة على مسرح يديره فاعلها، وترك الجسد الخاوي من أي روح بعد أن فارقته روح يمنى ملقى على الطريق ينتظر من يكرمه...

في غرفة الحجز وجدت رائحة أجساد متهالكة مشبعة بالتحدي والإصرار، بينما انكمشت حسناء في ركن مظلم مشبعة بالخيبة والذهول. نظرت حولها بعين شاخصة لتجد بجوارها واحدة من اللواتي ينثرن أجسادهن على أرصفة الطرقات بثمن زهيد، كانت المقارنة في نظر حسناء قاتلة، لماذا تنتهي بها المغامرة النبيلة في غرفة عفنة برفقة هؤلاء؟ كان الزيف يمثل لونا أصفرا يغشي عيون حسناء، لم أستطع فعل شيء سوى الفرار بها من هذه الغرفة التي سيسقط الهوان على ساكنيها في الصباح التالي، في غفلة منهن سرقتها وهي نصف غائبة بين النوم والسحابة الصفراء الممتلئة بالشك والزيف...

للمرة الأولى أقف أمام حسناء موقف المارد الخارق غير المرئي، في غرفتها بسكن الجامعة كانت تلتفت حولها بفزع ثم تفرك عينها بين الفينة والفينة، تحاول فهم ما حدث وتذكر أي شيء. استحسنت مداعبتها حيث ربتّ على كتفها بلطف فانطلقت رعشة الذعر في جسدها المثلج من شدة الخوف. اقتربت قليلا من وجنتها ونفثت الهواء المنبعث من عمق روحي لينعم بملمسها، شهقت أو صرخت، لم أستطع تبيّن رد فعلها

من كثرة الضحك. لا أعلم لماذا خفق قلبي بهذه القوة وسرت في جسدي سعادة غير مسبقة، كدت أسقط ضاحكا بين ساقيها وهي فزعة قلقة لا تقدر على مجرد التفكير في حقيقة الأمر، اقترحت عليها أن تتوضأ وتصلي فقط لتهدأ قليلا، استجابت لوساوسي المحمودة راغبة في مزيد من السكينة، بينما حضر ثلاثة من جنود حبريت يخبروني بأنه ينبغي علي المثول أمامه في التو واللحظة...

أعلم أن حبريت لن يمهلني، لذا وددت أن أترك لها شيئا يذكرها بي، أو على الأقل يثير في نفسها أي احتمال لوجودي في حياتها، لم أعد أحتمل هذه المراقبة والتسلل الخفي إلى عالمها، ولم يكن أمامي سوى أن أكتب لها رسالة. هذه هي المرة الأولى التي أمسك فيها قلما وأجلس في هيئة شبه إنسية لأكتب كلمات لا أعلم الفعل الذي ستؤدي إليه، ترى هل ستفهمني؟ هل ستقتنع بهذه الفكرة؟ هل ستصدق كلماتي المرسلة فوق أسطر من أجندتها الخاصة التي لا تسمح لأحد بالقرب منها؟

تساؤلات عدة لا يمكن الجواب عليها إلا بعد التجربة، لذا جلست فعلا وكتبت:

«حسناء، يا ذات الوجه الصبوح والجدائل الليلية الفاتنة، أنا العاشق السيئ الحظ كما يقول شاعرك المفضل، أنا الأب الذي سعد بمجيئك إلى الحياة أكثر من والدك الذي تكنين له كل الحب، وأنا الابن الذي بات ينهل من نهر أمومتك كل ليلة في

صورة القط بسبس، وأنا الذي يتعذب منذ يوم وصولك إلى هذه الحياة. كل دقيقة تمر من حياتك بمثابة ناقوس يدق فوق رأسي، ينبهني إلى أن سعادتي عمرها ينقص وينقص. أنا الظلام الذي يحيط بك الآن، أنا العطر الذي يعلق في ذاكرتك. هل ستصدقين الأمر إذا قلت لك إنني أحد حكماء قبيلة حبريت العظيم، ملك من ملوك الجان؟ فاتنتي... هناك حياة أبدية تنتظرنا، سنقضيها في النعيم الذي لم يخطر ببالك، صلّي يا صغيرتي من أجل ذلك اليوم، صلّي من أجل فارس أحلامك، استعدي من الآن... خادمك المخلص وزوجك العاشق / الحكيم نوميدوس».

حتما إذا قرأت هذه الكلمات ستبتسم قليلا وتسخر من صاحبها، حتى وإن سخرت فلا بد أنها ستذكر هذه الكلمات وتربطها بهاجس ما يطرأ إلى ذهنها فجأة لتعترف في قرارة نفسها بوجودي. يكفيني أن عيونها ستسقط على هذه الأحرف الساذجة وتبتسم.

تركت الرسالة مصحوبة بقطعة من عمق روحي تحرس زوجتي الإنسية، ورحلت وأنا أفكر في هذه الجرأة التي أصبحت تملأ قلبي.

****

حسناء...

يمكنني أن أقولها بكامل قواي العقلية. ذلك الصباح هو أغرب صباح مررت به منذ ذلك الصباح المميت الذي فقدت فيه أبوي. استيقظت من حلم لا أعلم كيف ذهبت في غياباته بعد تجربة الليلة السابقة، تلك الغربة العجيبة التي انتابتني فور رحيل يمنى، وهذه الحياة التي لا تستحق أن نحياها. شعرت أنني سابحة في فلك سريالي ولا أعلم أين الوجهة الصحيحة، لماذا قتلت يمنى؟ لماذا لم يكترث لأمرها أحد؟ وحتى معلمتنا لم تأبه لموتها، بل كانت منتشية سعيدة، كانت تخبرني أن الفقيدة الآن في دار خير من دارنا وبين أهل أفضل لها من أهلها، أخبرتني أنها كانت تنتظر هذه الساعة لتلقى ربها منتصرة مقبلة غير مدبرة، مجاهدة في سبيله!

لم يعد بداخلي متسع لهذه الشعارات ولا لهذه المحاضرات التي تثير الحماسة في القلب، لا أعلم سر هذه النقلة الجغرافية الغامضة التي انتقلت خلالها هاربة من مواجهة تحقيق يؤدي بي إلى سجن مؤقت على ذمة قضية ما، كل ما شعرت به هو إغماءة أفقت منها على فراشي وحيدة، ظننت أن ما كنت فيه هو حلم طويل واستيقظت منه، لكن الدماء الجافة على عباءتي ونقابي المهترئ وكدمات متفرقة في جسدي، كل شيء يقسم لي أن ما حدث هو واقع أليم!

ثمة واقع آخر منذ وقت طويل وأنا أتجاهله، واقع يقول إن أحدهم من عالم ما في هذا الكون يضاجعني كل صباح، وفي تلك الوحدة ظل يداعبني، كدت أستمع إلى أزيز ضحكاته المكتومة لقاء الفزع الذي غرقت فيه، أشعر أحيانا أنهم –سكان العالم الآخر– أطفال يستمتعون بفزعنا ويسقطون على الأرض ضاحكين عندما ينظرون في عيوننا الخائفة ويلمسون شفاهنا الباردة الجافة.

قمت للصلاة وكأنه أمرني بذلك ثم ذهب ليسترخي في غفوة بعد نوبة المرح تلك، ارتديت ملابسي ونزلت إلى الشارع، نسيت أن العباءة ملطخة بالدم، لكن الغيمة الرمادية الحزينة التي خيمت على سكن الجامعة وعيون طلابها ذكرتني بما حدث، كان بكاء قلبي مرا قاسيا لكن الدموع التي يجب أن تسقط أرضا ضلت طريقها للخروج وبقيت حبيسة القلب الموجوع، غرقت عيناي في خدر من نوع يسمى تجاهل الألم حتى وإن كان مميتا. كانت الساعات تهرب من بين يدي في هذا اليوم وأنا أتجول في المدينة بغير هدى، سمعتهم يتحدثون عن هاربة، تسمى حسناء، نوبية الأصل، بيضاء البشرة، وكأنها لقيطة قبعت في دار جدة عجوز طوال الزمن الماضي، سمعتهم يرمونها بأفظع الشتائم والأوصاف، عن ذلك الفتى الذي صعد إلى غرفتها، وتلك الصديقة التي صحبتها إلى عالم الإرهاب، وعن سفورها الفج وحجابها المفاجئ، شعرت باختصار أنني مضغة في فم المدينة، كما حاصرتني عيون البعض ممن يعرفني أو سمع من الآخرين عني. رغم كل ما شعرت به من الضياع في تلك اللحظات، لكن هناك خاطرا هبط إلى عقلي فجأة، وتذكرت تلك الأحلام البعيدة التي كنت أتجول من خلالها حول العالم،

تذكرت رائحة جدتي، ورائحة بسبس ومواءه الدافئ، تذكرت ذلك الهاتف الذي انقطع، كما غاب بسبس، وتركوني جميعا عارية من كل ما يدفئني في هذه الوحشة، تذكرت وفاء، وكالمعتاد في أحلك الظروف تعود سفينتي لترسو مطمئنة على شاطئ صدرها وميناء أذنها التي لا تصم في وجهي مطلقا. اتصلت بها، غابت طويلا قبل أن تجيب على مكالمتي بصراخها العجيب تعبيرا عن اشتياقها، قلت لها في خاطري ولماذا لم تحاولي أن تجهدي أناملك الرقيقة بالضغط على أزرار هاتفك في محاولة لإشباع اشتياقك هذا؟!

«يبدو أنني أصبت بنوبة اكتئاب حادة، جعلت على عيني ستارا من الغيوم السوداء». كانت هذه هي عبارتي الأولى لها، لترد عليها وفاء ساخرة إن عيني لا شيء عليهما سوى قماشة سوداء خشنة الملمس عطنة الرائحة. يبدو أنها في مزاج جيد للمزح الثقيل والسخرية اللاذعة من نقابي ومن هيئتي. أذكر أنها كانت ترفض فكرة النقاب أكثر رفض من عمر، هي لا تستطيع النظر إلى العالم من وراء قناع، تقول: «ألا تكفينا أقنعتنا التي لا نخلعها مطلقا، قناع الخجل، قناع الأنوثة، قناع القوة، قناع الاحترام، قناع العشق أو الكره؟ كلها على حد سواء، مجموعة من الأقنعة الثقيلة التي تجهد عضلات القلب قبل عضلات الوجه». هرمت وفاء فجأة، وكأن صوتها في هذه الكلمات يشبه صوت عجوز في عقدها الثامن من العمر.

وانتهت محاضرة الأقنعة باقتراح أن أخلعه وأعود إلى طبيعتي التي لم تكن فاسدة إلى ذلك الحد، طلبت مني أن لا أتعجل أمرا سيحدث لا محالة، لم أكن بحاجة إلى أكثر من جزء ضئيل من الثانية حتى أتذكر هذه النصيحة المعينة التي علقت حول عنقي كتميمة تطرد الشياطين والجن. لقي اقتراحها

سخطا شديدا مني واسترسلت في مرافعة للدفاع عن نفسي وعن النقاب أمام وفاء، وجدت نفسي أحدثها عن وجوب النقاب اتباعا لسنة النبي وآل بيته، لكنها قاطعتني بحنق شديد لتذكرني بأن الأئمة اختلفوا في وجوبه وفرضيته، ثم قالت بنبرة الأم الحنون: «الاختلاف رحمة يا حسناء فلا تشددي على نفسك، كما أنك تحتاجين إلى وقت طويل لإصلاح أشياء أهم كثيرا من المظاهر».

كلماتها الأخيرة تشير إلى تلك الأيام الخالية التي أمضيناها معا بلا صلاة ولا حجاب ولا أي محاولة لإحياء هذه الذكرى التي وشمت على قلوبنا وجعلتنا ننتمي إلى ملة الإسلام. أغلقت الخط بلطف وأنا أهرب من مواجهة وفاء، عدت إلى الغرفة لأختبئ من عيون المارة، عدت بعقل ممتلئ بالخواطر الغامضة الحائرة. أشتاق إلى أجندتي الوفية اشتياق المغترب إلى دفء الوطن وضمته...

تبخرت خواطري فجأة وجف السيل الذي عدت به فور قراءتي لهذه الكلمات، رسالة كتبت في أجندتي الخاصة، تلك التي لا تصل إليها يد مخلوق ما دمت على قيد الحياة وفي صدري نفس يصعد ليعانق ذرات الهواء، بخط هو غالبا خط طفل أصابته حمى شديدة جعلته يتعرق ويرتعد كثيرا لتسقط الأحرف على صفحة الأجندة متوترة معوجة تفوح منها رائحة عبقة، رائحة أعرفها جيدا، كتلك التي شممتها ليلة انقطاع الكهرباء، وكرائحة وسائدي في منزل جدتي، عطن معين ينم عن وجود حياة ما، حياة نابعة من صدر ميت أو ربما كانت روحا! لم أستطع استيعاب الموقف،

فاعتدلت في جلستي ثم أعدت قراءة الرسالة مجددا، ثم قلت في نفسي: لماذا لا يكون حلما وسأستيقظ عما قريب؟

رغبتنا الجامحة في تحويل أي كارثة يصعب على العقل تحملها إلى حلم أو كابوس تكاد تكون مضحكة أحيانا، حيث نقف على حافة الواقع ناظرين إلى أعلى حيث الأحلام، متأملين حلاوة منظرها، متمنين أن تنتمي أحداث الواقع إليها، تتفجر بداخلنا حينها بركة من الرضا بالواقع فقط لو اقتصر على صرخة اليقظة من الحلم المزعج ثم العودة إلى النوم الهادئ مرة أخرى.

كلمات الرسالة لم تكن مقلبا مدبرا من إحداهن، أعلم ذلك فقط لأنني لم أسمح لأي منهن بالاقتراب من عالمي الخاص والولوج إلى غرفتي. كانت وحدها يمنى هي التي استطاعت اقتحام حياتي الخاصة وترك أثر بالغ الصعوبة في وقت قصير. عجبا لأمرك يا يمنى، ترى هل كانت نفسك مباركة للحد الذي يجعلك طيفا يمر على هذه الأرض بسلام ثم الصعود إلى السماء بهذه الهيئة المأساوية؟! هل هذه الأرض التي رويت بدمائك وهؤلاء الذين فروا من ساحة المعركة متصفين بكل معاني الخسة يستحقون حياتك ثمنا لكرامتهم وصلاح أمورهم؟!

يبدو أنني فعلا سقطت في بئر الصدمة وعادت الأفكار المقيتة تلعب برأسي. للمرة التي لا أعلم كم قرأت هذه الرسالة الموضوعة بداخل أجندتي، لكن في تلك المرة الأخيرة لفتت نظري كلمة «زوجك» في النهاية. الظلام الذي يشع بداخل صدري أشد وطأة من ظلام المدينة في تلك الساعة من الليل، فكرت في الأمر، هناك واحد من عالم آخر يسمونه الجن، يسمي

نفسه زوجي، يطلب مني البقاء على أمل واحد وهو الحياة الأبدية معه، ويحدثني عن تاريخ حياتي الفارغة من كل شيء سوى وفاء وجدتي و... قطي الراحل...

بدأت أشعر بأن أحدهم معي في الغرفة فعلا، وبدأت رائحة الخوف القابع في أسفل بطني تتسلل إلى أنفي. قمت على قدمي المتجمدتين وأضأت المصباح الأبيض ومصباح المكتب الصغير وفتحت الباب بحذر لأشغل المصباح الخارجي أمام باب الغرفة. باتت غرفتي في تلك الليلة لامعة مشتعلة بين بناء مظلم وكأنه بناء مهجور، كان الرعب الذي يملأ صدري شيئا لطيفا مؤنسا أمام الهاجس الخطر الذي استنتجته من كلمة زوجي، وبدأت أذكر تلك الصباحات المتناثرة في الفترة الأخيرة منذ قدومي إلى القاهرة، كانت اللذة التي أشعر بها في تلك الصباحات لذة استثنائية، كنت أعتقد أنها أحلام تغرق بها أي فتاة.

عزمت على زيارة طبيبة للتأكد مما إذا كانت أضغاث أحلام أم أن صاحب هذه الرسالة هو زوجي فعلا!

استدعيت النوم لكنه أبى، فبقيت عالقة في دوامة من الأفكار الغريبة...

****

نوميدوس...

للعشق تبعات مؤلمة، أهمها الغيرة، تلك التي قد تؤدي بالشخص إلى ما وراء الجحيم بدرجات، أن تصبح عاشقا أنانيا، أو أن تصبح عبدا مخلصا يغار على سيده، فذلك يعني أنك قادر على ارتكاب خطيئة من الخطايا التي لا تغتفر...

إن الحكمة التي قضت بأن يتولى آدم خلافة الأرض بدلا من الأب الأكبر لنا معشر الجن كان سببها الأول هو غيرتنا وشدة حمقنا، تلك هي الحقيقة التي لا ينبغي علينا إنكارها، فلولا قتل بعضنا بعضا منذ بداية التاريخ الأزلي لما خلق الله ذلك الكائن العبثي من التراب ليكون خليفة يعمر الأرض بدلا من أن يسفك الدماء. وكما كان الكبر إرثا عزيزا علينا، فالغيرة والتهور أيضا إرث لا يمكن التخلي عنه، الغيرة التي تشبع بها قلب راميس، الجارية المخلصة لحبريت.

كانت هي من أرسل الجنود إلي، كانت تحت هالة من الغضب عندما مثلت أمامها وبقيت صامتا، هممت بالرحيل قبل أن تخرج من تلك الهالة السوداء التي تتسع كلما فشلت في ثنيي عن العودة إلى حسناء والبقاء بجوارها، رغم ما قام به حبريت من إخفاء لأخباري عنها وعن قبيلتها لكنها استطاعت الوصول إلي والتمكن مني لتجعلني أقف أمامها ها هنا

في هذه الساعة. هي لا تعشقني لأن قلبها لا يعرف سوى الحقد على بنات حواء، إنما تريد فقط إزالة ذلك الحجر الثقيل الذي بينها وبين مولاها حبريت لتصبح المحظية المرضي عليها دائما والمطاعة أبدا، لم تجد أمامها قربانا أعز على حبريت مني، لا شيء أكثر مرارة على المرء من السجن بداخل صخرة في قاع الطبقة السابعة من الأرض، ليبقى في أعمق نقطة في المحيط مثل حبة رمل لا تكاد ترى، الظلام الدامس والموج الهادئ وكائنات لا تراها وإنما تشعر بها وهي تتحرك لتفقدك السكينة الداخلية، قد تكون هذه الكائنات هي الذرات المتناثرة من بقايا الجثث الغارقة وتلك هي شظايا أرواحهم.

في السجن تذهب الروح في صراع بين التأمل في اللاشيء والعوالم الغريبة التي تنتج من ذلك اللاشيء، وبين الذكريات القابعة في ثنايا الذات. لا أنكر أبدا أنني كنت أقتات على الذكريات طوال السنوات العشر الماضية حتى أستطيع التشبث بروحي التي حاولت كثيرا أن تتركني وتصعد إلى حسناء التي جفت كما تجف الزهور بعد ذهابها إلى الطبيبة التي أخبرتها أنها ليست عذراء بعد وابل من النظرات المهينة والكلمات المعطرة بالسخرية والاستهزاء...

عندما علم حبريت بما فعلته بي راميس لم يتمالك نفسه من شدة الغضب، ها هي المأساة التي يعاني منها منذ قرابة ثلاثين عاما أصبحت مجرد ذكرى عالقة في صخرة صماء لا يمكنها فعل شيء في هذه الحياة سوى مراقبة العالم، أصبحت حلما كما قالها لي ذات يوم، ورغم ذلك

فقد أخطأت راميس لتقودني إلى السعادة الحقيقية، حيث قرر حبريت قراره الأخير انتقاما من حماقة جاريته وخداعها له منذ سنوات عشر مضت، باركت حماقتها وسعدت بحماقة حبريت الأخيرة، حيث أمرني بالذهاب إلى حسناء بلا عودة، فقد تبرأ مني هو وعشيرته وكل من في مملكته. لم أكترث لذلك كله، فقط أردت أن أرحل إليها.

******

حسناء...

لا يمكنني إنكار سعادتي باعتقاد أن ذلك الرجل سيعيش معي بقية العمر، كما أن رؤيته هذه تعد مفاجأة سارة، لأخرج معه ذات يوم ويسير بجانبي كرجل طبيعي بهيئته المثيرة للاهتمام، وجبهته المزهرة وشعره... شعره يكاد يكون رماديا، وهو ناعم كثيف! عيناه اللتان لم تصادفني عيون مثلهما في حياتي، حتما هذه ليست صورته الحقيقية، وحتى الفرحة التي ظهرت في عينيه فور وصولنا إلى هذه الأرض لم تكن طبيعية، بحثت في صورته عن آذان طويلة أو ذيل يشبه ذيل العقرب أو مخالب نحاسية أو ما يشبه ذلك لكنني لم أجد سوى رجل شديد الوسامة، إنه فارس أحلامي الذي أصبح فارسا واقعيا.

أدرك الآن أنني مستيقظة في الواقع ولا أحلم، كنت أتذكر أحلامي الكثيرة وهذه الأماكن التي أخذني إليها نوميدوس، شعرت أنني ملكة فعلا، ملكة من ملوك الجن أتت إلى الأرض في هيئة بشرية عن طريق الخطأ، ذكرياتي معه تنسيني الخوف الذي ظل قابعا في صدري منذ عشر سنوات أقمت خلالها في شقة مفروشة تابعة للشركة التي عملت بها فور تخرجي، كانت حياتي شبه عادية لا يمر بها سوى عملي وأفكاري اللعينة والخوف من ذلك المجهول نوميدوس...

كانت الطبيبة تحدثني بلطف شديد في البداية، قلت لها إنني أريد معرفة ما إذا كنت حاملا أو لا، لكن بعد أن علمت أنني ما زلت طالبة، تحولت نظراتها إلى سهام مسمومة، حتى كلماتها الرطبة أصبحت قذائف موجعة، مرة أخرى تعرضني هذه المدينة إلى سطحيتها واهتمامها الشديد بالمظاهر، مرة أخرى أجد نفسي محكوما علي بالسجن داخل عباءتي ونقابي. مجتمع غريب، كنت أنا أغرب شخص فيه.

كنت ألتقط بعض فتات النوم كل ليلة تحت الضوء الشديد المنبعث من كل مكان ليقيني شر الوحدة المخيفة والجو الذي لا يتغير، مرت علي سنوات الدراسة مرورا ثقيلا، كنت حائرة، فرغم تلك الرسالة وجسدي المفعم بأثر ذلك المخلوق نوميدوس لكنه أصبح غائبا لم يعد يزورني صباحا، ولم تعد أحلامي ممتعة كما كنت قديما، لم يعد هناك شيء في هذه الحياة كما كان.

تخرجت وخلعت النقاب على مضض لأجد وظيفة تدخل لي بعض المال، كانت جدتي تودع ما بقي لها من أيام حينها لتصعد إلى السماء وأبقى كشجرة وحيدة في غابة مقفرة، كدت مع الغياب أن أشك في أمره، لكن الطبيبة التي أكدت لي أنني زوجة لأحدهم فعلا هي التي حالت بيني وبين الشك. كنت أنتظر عودته أو ربما انتظرت أن تهدأ نفسي وتصعد الروح إلى السماء، لم أستطع تقبل أن يكشف هذا الجسد مرة أخرى على مرأى أي مخلوق، اكتفيت بارتداء الحجاب معلنة للعالم أنني أنتمي بالفعل إلى بقية النساء ولا علاقة لي بأي فئة معينة...

كل ما سبق قد انتهى فور دخولي إلى غرفتي لأجده أخيرا بعد عشر سنوات من رسالته التي أصبحت أغفو على حروفها وأستيقظ لأقرأها، كان يجلس فوق فراشي والابتسامة تملأ وجهه الذي لم أشعر بأي غرابة تجاهه، شيء بداخلي اندفع نحوه ليعانقه لكنني كبحت هذا الشيء، لا أستطيع التوقف عن التفكير في أمره، لم يرد في خاطري ذات يوم أن تكون لي علاقة بأحد من الجن، وبالأحرى لم أفكر في الأمر يوما. فكرت هل هو مسلم؟ إذا كان هو الهاتف الذي دعاني للصلاة فهو إذن مسلم. تحدث في رسالته عن الصلاة وعن الحياة الأبدية، والقرآن يقول إن منهم الجن المسلم الطيب الذي كان يستمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يؤذي أحدا. أحسب نوميدوس من هؤلاء القوم، ومنهم من يؤذي البشر حتى وإن كان من الجن المسلم!

كان ينظر إلي وكأنه يقرأ ما أفكر فيه، مد إلي يده، تلك الكف التي لم أشاهدها من قبل، يد رجل عادية لا تختلف عن يد أبي كثيرا، وكأنه يريد مني أن أضع يدي في يده. ابتسامته تتسع وعيناه كأنهما تضمانني إليه، يبدو أن القادم سيكون أجمل مما مضى، ويبدو أنني لن أتعرض للزيف والسطحية مرة أخرى...

شعرت بالنعاس بعد ساعات من الحديث عن سنوات عمري الماضية، لم أتردد في النوم بجواره كما كنت أغفو وهو بين ذراعي قطا أشعث، لأستيقظ فأجدني معه في مدينة الحب، تحت إيفل المحمل بقصص الحب على مر العصور، أخبرني عندها أننا سنمضي هنا ما بقي من العمر... ومن هنا بدأت حياتي الأبدية التي وعدني بها.

****

انتهت

من فضلك قيّم الرواية على الجودريدز

من هنا

https://www.goodreads.com/book/show/20360172

عندما تبدأ في قراءة هذه التحفة الأدبية المتكاملة لن تستطيع ترك الكتاب حتى تأتي عليه كله. ستظل تلهث خلف السطور والصفحات من فرط التشويق والمتعة والغموض. استطاعت الكاتبة بجدارة أن تجذبنا بأسلوبها السهل الذكي المرن الذي لا يشعرك بالملل.

الجدير بالذكر أن الكاتبة تعد الأولى التي تتناول هذا النوع من الأدب بهذا الأسلوب المميز الشيق، بداية قوية جدا لموهبة سوف يلمع اسمها قريبا في سماء عالم الأدب، وسوف تكون منافساً قوياً جداً لقريناتها على الساحة. وبكل ثقة أستطيع أن أقول إنه على يدها سوف يلمع القلم النسائي المصري قريبا جدا.

مع «نوميدوس» لن تستطيع أن يغمض لك جفن.

أمل زيادة - كاتبة وروائية وصحافية وعضو عامل باتحاد الكتاب

